281

HARLEQUIN

روايات أحلام

أميرة رغماً عنها

صوفي ويستون

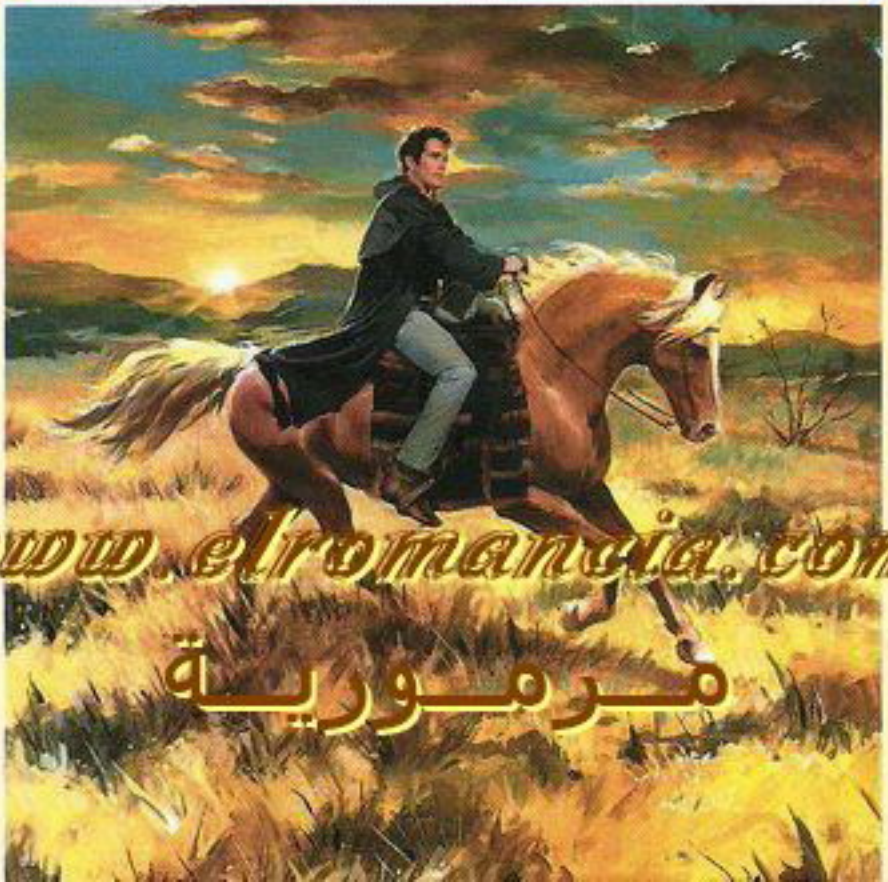

www.elromancia.com
مرمورية

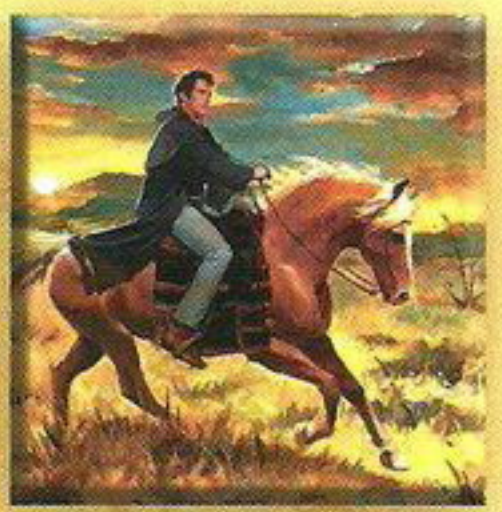

أميرة رغماً عنها

تساءلت فرانسيسكا قبل أن ترى كونراد : " هل هو رجل أو فأرة ؟ " .
لكن كونراد لم يكن فأرة أو رجلاً عادياً ... إنه أمير حقيقي .
وهذا الأمير يريد عروساً لإمارته . وفرانسيسكا هي الأصلح لتملأ هذا الدور ...
والسبب أموال أبيها الطائلة !
ستكون فرانسيسكا هي الفأرة إذا قبلت هذا الدور . ولكن كيف تستطيع أن تقاوم إغراء كونراد الرائع . رغم أنها تعرف أن الأمر لا يتعدى الخداع !

صوفي ويستون

ولدت صوفي في لندن وفُطرت على حب السفر والكتابة فخطّت سطورها الأولى وهي في سن الخامسة. وألّفت روايتها الأولى وهي في فترة نقاهة من مرضٍ ألمّ بها وجعلها تظنّ أنها بلغت نهاية المطاف. لكنها كانت مخطئة في ظنها. فقد استعادت عافيتها وأعجبتها تجربة الكتابة فالتزمت بها إلى اليوم.

تقيم صوفي وستون اليوم في قلب العاصمة البريطانية النابض مع قطتين متطلّبتين وشجرة كرز. وهي لا تنفكّ تجوب العالم بحثاً عن مواقع جديدة تحوّلها الى مسارح أحداث لرواياتها.

وقد عرفت رواياتها بأنها تنقل القارىء الى أماكن غريبة مثيرة؛ كما يشهد لبطلات رواياتها العصريات بأنهن يدغدغن شعور القارىء بأسلوبهن المميز في الحصول على أفضل الرجال في العالم!

تدعو صوفي وستون قراءها لزيارة موقعها على الانترنت:

WWW. Sophie - Weston.com

١ ـ كيف أرى؟

قالت فرانسيسكا بانفعال: «كان هذا النهار أسوأ نهار في حياتي».

وكانت شاحبة بعض الشيء. فقالت «جاز» توقفها: «لا تجعلي «باري دي لاتوش» يهزمك، ما هو أفضل من أن تخرجي وتستمتعي؟».

نظرت إليها فرانسيسكا غير مصدقة: «لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أذهب إلى حفلة بعد ذلك».

هزت جاز رأسها وقالت رافضة التنازل عن رأيها: «نعم، فأنت بائعة كتب ممتهنة الآن. اذهبي إلى حفلة الناشرين ولو قتلك ذلك».

حملقت فرانسيسكا فيها. جاز طويلة سوداء رائعة لكن حملقة فرانسيسكا كانت تقص الفولاذ إذا وضعت إرادتها فيها.

لم تكن فرانسيسكا هيلبر طويلة، بل نحيفة صغيرة الجسم ذات شعر بني عادي ووجه عادي يسرّ الناظرين. إنها، كما تقول أمها الرشيقة الأنيقة، ليس فيها ما يميزها بين مجموعة من الفتيات.

لكن الاثنتين كانتا تبخسان من تأثير عينيها. كانتا كبيرتين بلون بني ذهبي، أهدابهما طويلة سوداء. وكانتا تعبران عن كل ما تقوله فرانسيسكا أو تشعر به، رغم وجود نظارتين كبيرتين عليهما.

فرانسيسكا حالياً تشعر بنفسها مخدوعة. لكن «جاز ألن» كانت شريكتها في أحدث مكتبة مستقلة في لندن، مكتبة باز وكانت جاز تعرف ما تتحدث عنه.

قالت فرانسيسكا: «أنت غير جادة».

أجابت جاز: «بل أنا كذلك».

وكانت تتحدث وهي تهبط درجات سلم. قالت لها فرانسيسكا بقنوط: «لكنك كنت هنا، ورأيت بنفسك».

فضحكت جاز: «لقد ثار طبع أبيك عليه. وهكذا؟».

حدّقت إليها فرانسيسكا. كانت جاز معروفة بالغلظة، لكنها هنا من فولاذ. فقالت: «مرحباً؟ لقد رأيت بنفسك أبي يدخل ويدمّر الرجل الذي أفكر في الزواج به».

فقالت جاز بهدوء: «لقد رأيت أباك يضع بعض المفرقعات ولكنك ما كنت لتتزوجي أبداً ذلك الرجل».

هزّت فرانسيسكا رأسها. لم تكن قد أخبرت جاز، لكنها عندما غادرت البيت هذا الصباح كانت قد قررت قبول عرض الزواج بباري.

قالت بأسى: «كنت أنوي ذلك».

كان المفروض أن يخرجا للعشاء في أحد المطاعم هذا المساء. وكانت فرانسيسكا تتصور مشهد المائدة المضاءة بالشموع، بسرور بالغ.

ولكن هذه كانت تصورات هذا الصباح. ثم دخل أبوها، بيتر هيلير، يواجه الأعزل من كل قوة أمام أبيها الذي هرب من «مونتاسورو» مقاولاً منذ خمسة عشر عاماً وانتعشت أحواله وأصبح ملياردير، لأنه كان يكتشف مواطن الضعف في خصومه ثم يقضي عليهم، أما باري فلم تحصل له فرصة.

وجه إليه أبوها سلسلة من التجريحات والإدانات الجرمية، واشار إلى أن باري لم يبدأ بإظهار حبه لابنته إلا بعد أن علم بثرائها.

في البداية لم تصدقه فرانسيسكا ولكن بيتر هيلير أعلن أنه لن يورثها، وبهذا تلاشى تقرب باري العاطفي منها، آخذاً معه كل أحلام فرانسيسكا ومعظم احترامها لنفسها.

قالت جاز متشجعة: «عليك التفكير بطريقة حكيمة، في النهاية. وبعد، لا شيء يميّز باري».

بعد ذلك المشهد الذي قذف فيه أبوها اتهاماته في وجه باري، لم تستطع

فرانسيسكا أن تناقش حقاً هذا الأمر. بل عضت شفتها وقالت: «لماذا لم أفهم أنا هذا؟».

أجابت جاز مواسية: «بل فهمت، في الواقع. قد يكون أبوك هو الذي قام بالتحريات، لكن التدمير هو من عمل يديك».

اتسعت عينا فرانسيسكا المعبرتين، ثم جلست بشيء من الصعوبة.

وعادت جاز تنصحها: «فكري في الأمر».

أخذت فرانسيسكا تحدق، بعينين لا تريان، في المجموعة الكاملة لأحدث كتب الأطفال.

كانت قد واجهت أباها متحدية، برفقة باري متهمة والدها بالمناورة والنهم إلى المال، نافية عن باري كل الصفات التي نعته بها.

قال لها برقة فائقة: «يا عصفورتي، لا يمكن أن أفعل هذا بك».

ومدّ يده يرفع النظارات عن عينيها ويضعها في جيبه، وهي إحدى حركاته الصغيرة الظريفة. والواقع أن هذه النظارات جديدة وقد كلفتها مبلغاً كبيراً من المال.

كانت فرانسيسكا ترى الأشياء، دون نظارتها الطبية، غائمة. ومع ذلك قالت له: «نحن، الاثنين، شابان صحيحا الجسم، فلماذا نحتاج أموال أبي؟ يمكننا أن نعمل».

عند ذلك تحوّل باري إليها وقد محى كل ما على وجهه من ظرف. لم تستطع أن تراه جيداً دون نظارات، لكنها شعرت بذلك من سماعها حركته الخشنة وهو يقول: «لا. لا يمكننا ذلك».

تملك أباها السرور، ورفع اصابعه: «أهه!».

لكنها تجاهلته، وقالت لباري: «لست بحاجة إلى مال..».

فصرخ فيها بألم: «أما أنا فبحاجة إلى ذلك.. لقد أمضيت زمناً أتساءل من أين سأحصل على وجبة طعامي التالية، ولا أريد العودة إلى ذلك أبداً».

لم تقل فرانسيسكا شيئاً بينما قال أبوها: «الوداع، يا سيد هارب».

وكان ذلك اسم باري الحقيقي. وليس «دي لاتوش».

تجاهلت فرانسيسكا أباها وقالت لباري بصوت غريب: «أتظن أنه ليس بإمكاني أن أنفق عليك؟».

فقال أبوها: «لقد تأكد ذلك النغل من ذلك لتوّه».

عند ذلك استسلمت. وكان ذلك اليوم أسوأ أيام حياتها.

اطلقت ضحكة صغيرة، وهي تقول: «نعم، فعل ذلك. وداعاً يا باري».

لكنها كانت مع أبيها أقل تهذيباً.

ثم ذهبت إلى غرفة المخزن حيث أخذت تبحث عن آخر نظارات للطوارىء تحتفظ بها، ووجدتها في صندوق الاسعاف الأولي. ولكن أحد طرفي النظارة كان مخلخلاً وكانت قد شدته يوماً بشريط طبي استحال لونه رمادياً في صندوق الإسعاف هذا. وهكذا غالبت فرانسيسكا دموعها بشدة، وقالت: «ماذا تعنين بقولك إن التدمير كان من عمل يديّ؟».

نظرت إليها جاز بعطف: «لأنك لم تخبري باري بأنك غنية..».

قفزت فرانسيسكا: «ماذا تعنين؟».

أجابت المرأة: «هل نسيت أن أباك وضع في البنك مقداراً كبيراً من المال باسمك عندما كنت مراهقة. وهو ملكك ويمكنك أن تفعلي به ما تريدين».

ابتلعت فرانسيسكا ريقها: «نعم صحيح... فهمت».

قالت جاز: «كان الأمر صحيحاً عندما قلت إن أباك لا يمكنه أن يحرمك من ميراثك، لأنه سبق أن سلّمك ميراثك ذاك. لماذا لم تقولي هذا لباري؟».

قالت: «لقد... لقد حاولت».

قالت جاز بدهاء: «لا. لم تفعلي هذا، لأنك أردت أن تعلمي، أليس كذلك؟».

فسألتها: «أعلم؟ أعلم ماذا؟».

أجابت: «ما إذا كان المال مهماً بالنسبة إليه أم لا».

أجفلت فرانسيسكا، لكنها كانت امرأة قادرة على مواجهة الحقيقة مهما

كانت سيئة. فقالت: «نعم. أظن هذا».

فقالت المرأة: «أرأيت؟ لم تكوني مخدوعة تماماً، بل كان لديك شكوك كأية امرأة عاقلة مثلك».

تمتمت فرانسيسكا تقول: «امرأة عاقلة وغير جميلة».

فقالت جاز: «ما كنت لتتزوجي ذلك المعتوه».

ثم انتبهت فجأة لما قالت فرنسيسكا.

ـ ماذا قلت؟

قالت فرانسيسكا بإشارة خشنة: «كل من أبدى اهتماماً بي كان السبب إما لقب أمي، وإما ملايين أبي. لأنهم عندما كانوا يرونني جيداً، يتراجعون».

الاستسلام الذي لمسته جاز في صوتها صدمها. فقالت: «كلام فارغ».

ولكن كلامها هذا تأخر عشر ثواني، فابتسمت فرانسيسكا بضعف: «أنت لا تعرفين المصائب التي عرفتها، يا جاز».

فقالت جاز: «ألسنا جميعاً كذلك؟ هذا يسمى سن الرشد».

قالت فرانسيسكا: «عندما يتعلق الأمر بالناس أجدني عاجزة».

وقفت فرانسيسكا منتصبة القامة، حتى أنها استطاعت أن تبتسم وهي تقول: «وهكذا، هذا يعني أن عليّ أن أركز عقلي في مهنة. صح؟ خذيني إذن إلى تلك الحفلة اللعينة».

* * *

هز كونراد دوميتيو رأسه أمام كل هذا الحشد، ثم صرخ بمساعدته: «إلى متى سيستمر هذا؟».

تقدمت خطوة إلى الرجل الأسمر الرائع أمامها... كان طويلاً عسلي العينين، ذا جسم رياضي وجبهة فيلسوف. كونراد دوميتيو يملك كل شيء: جاذبية ورجولة ووسامة وهذه الصفات كانت تجعلها ترتجف وليست هي وحدها في ذلك بل كل امرأة في دار ناشريه «غاثرون وبليك».

ردت عليه بصرخة: «بعد ساعة أخرى».

كانت تعلم طبعاً أن الحفلة ستمتد اكثر من ذلك، ولكن كونراد دوميتيو كان عديم الصبر مع الرعاية والإعلان مع أنه لم يكن وسيماً وبطلاً فقط. بل كان أيضاً أميراً. كان أميراً. . .

دائرة الدعاية لم تكد تصدق عندما عرفوا حقيقته، فهو أمير إضافة إلى كونه كاتباً ممتازاً. وكتاب (رماد تذروه الرياح) سيحوز على الرقم القياسي في المبيع.

قال كونراد وهو ينظر إلى ساعته: «بعد ساعة؟ لا بأس».

بإمكانه احتمال ساعة أخرى، ما كان الأمر ليبدو له بهذا السوء لو لم تكن الجدران مغطاة بصوره الفوتوغرافية وكأنه نجم سينمائي فهو لم يشأ قط أن تؤخذ له تلك الصور. وفي الواقع، لم يكن يريد أن يكتب ذلك الكتاب على الإطلاق. ولكن مصوّر البعثة تقدم مسافة مذهلة من البركان المتفجر وأخذ مزيداً من الصور للفريق الهارب من فوهة البركان، وهذا جعل كونراد يقرّ بأنهم يستحقون كتاباً. لكنه لم يكن مستعداً لهذا العرض.

وكان هذا هو السبب في أن الرجال الستة الذين أخرجوا إلى خارج ظلام بركان هائج واقفون هنا تحيط بهم صور فوتوغرافية تبلغ الست أقدام علوّاً لجبال يتصاعد منها الدخان. وعلى مناضد هناك كانت أكوام من كتب لامعة بينها كتابه (رماد تذروه الرياح).

وعاد ينظر إلى ساعته فلم يكد يراها في الضوء الخافت. وسأل مساعدته في مجال الإعلان: «ماذا تريدين أن أفعل؟».

أشارت بيدها إلى الجموع الحاشدة التي كانت تتحرك وتثرثر، وهي تقول: «الدعاية. . . الدعاية. . .».

التوى فم كونراد وقد بدت له في تلك اللحظة أشبه بجده الملك «فيليكس» ملك مونتاسورو السابق. لم يقل هذا، وإنما هز كتفيه كالعادة بشكل ذي معنى: «بإمكاني حالما نلقي الكلمة أن أعود إلى حياتي الطبيعية. إذهبي أنت من تلك الناحية، وسأذهب أنا من هذه».

أدار كل منهما ظهره للآخر، وعاد هو ليؤدي واجبه.

شعرت فرانسيسكا بصدمة. وقالت وهي تنظر إلى امرأة ترتدي ثوباً فضياً ذا شرائط على الكتفين: «كان عليّ أن أغير ملابسي».

ضحكت جاز وهي تنظر في أثر المرأة: «إنها منظمة حفلات، لا تهتمي لذلك، نصف الناس هنا جاؤوا مباشرة من أعمالهم مثلنا. والباقون هم المؤلفون والمحررون».

ثم شملت فرانسيسكا بنظرة فاحصة هتفت بعدها: «آه، لا، إنها ليست النظارات الموجودة في صندوق الإسعاف!».

فقالت فرانسيسكا متحدية: «لم أجد غيرها».

مدت جاز يدها إليها: «هاتها».

قالت فرانسيسكا: «لكنني من دونها أشبه بالوطواط الأعمى».

قالت جاز دون عطف: «سأقرأ لك التعليمات. حاولي أن تحضري شراباً دون أن تصطدمي بالأثاث. هذا كل ما عليك عمله».

قالت محتجة: «ولكن. . .».

قاطعتها جاز: «ليس هناك سيدة أعمال جادة تقوم بالعمل في قاعة كهذه واضعة على عينيها نظارات مضمدة برباط».

وعندما رأت فرانسيسكا تتمتم متمردة، عادت تقول: «لا تنسي أنك كرست نفسك للمهنة».

أجابت: «لكنني ما زلت أفضل أن أرى بعيني».

قالت جاز بلهجة حادة: «لا. فأنت تمثلين مكتبة «باز» الليلة. وينبغي أن تكون محترمات هادئات، وهذا لا يمكن بنظارات مربوطة برباط».

أذعنت فرانسيسكا وسلمتها النظارات، فتناولت جاز كيساً لامعاً: «خذي هذه بيانات الدعاية وهدية الحفلة».

قالت فرانسيسكا بأسى: «عليّ أن أتعلم الكثير».

وكانت جاز قد بدأت تبحث في محتويات الكيس.

قالت راضية: «هذا شوكولا. . خذيه. برنامج الحفلة، نحن بحاجة إليه الآن. أي كتب لدينا الآن؟ (عين موضع الحوت) لا. (خمسة آلاف سنة

من الرفض) قصة تافهة حتماً تأليف البروفيسور لا ادرى ماذا، لا. (رماد تذروه الرياح) و (مؤلفان) لا أحب هذا... ومع ذلك، يبدو أن الإثنين ممتعان تماماً. فلنر...».

علمت فرانسيسكا أن لا جدوى من أن تحاول قراءة شيء من دون نظاراتها. وفي مثل هذه القاعة المعتمة ستكون محظوظة جداً إن هي لم تصطدم بشيء، قالت بجفاء: «سأكون مصدر خطر الليلة».

لكن جاز لم تكن منتبهة إليها، وهي تدس في يدها ورقة لامعة وتقول بحماسة وهي تنظر إلى المدخل بلهفة: «انظري إلى هذا».

نظرت فرانسيسكا.. يبدو أن هناك وجهاً في مكان ما.

قالت: «آسفة».

قالت جاز وهي تمسك بالنشرة بنفاد صبر: «إنه بالغ الجاذبية بل أكثر من ذلك بكثير، اسمعي».

وقرأت النشرة بصوت مرتفع: «كونراد دوميتيو هو أحد أهم علماء الزلازل في عصرنا، لكنه ليس خبيراً في البراكين. وعندما ذهب في بعثة البروفيسور «روي بلاكلاند» إلى «سالامان كاو» كانت هي مغامرته الأولى إلى فوهة بركان».

قالت فرانسيسكا: «آه، أرجو ألا يكون كتاباً آخر عن البراكين».

فقالت جاز وهي تطالع النشرة: «اسمعي. هذا هو الجزء الجيد: أما كونراد دوميتيو، فهو أيضاً معروف بأنه كونراد ولي عهد «مونتاسورو». فهو وريث جده، الملك السابق فيليكس البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، وفيليكس نفسه هرب إلى لندن عن طريق إيطاليا بعد أن أمضى سنوات مراهقته محارباً الغزاة من قلعته دوميتيو الحصينة في الجبال. ويقول فيليكس، الملك السابق دون تردد: «حفيدي خُلق قائداً». أما جواب كونراد دوميتيو نفسه فهو بسيط، إذ يقول: «كنت أفعل كلا شيء بإرشاد الكتاب لأنني كنت جديداً، أما الآخرون فقد كانوا معتادين على الوضع تماماً. لأنني كنت قد انتهيت لتوّي من قراءة كتاب عن ثورة البراكين. ونتيجة لعمله هذا،

هناك ستة رجال ما زالوا أحياء اليوم. وهذه هي قصتهم».

ورفعت بصرها عابسة: «مونتاسورو؟».

تجاهلت جاز قولها هذا، وهي تقول: «له جسد أبولو وهو إلى ذلك ينقذ حياة الناس أيضاً... إنه هادىء... أليس كذلك؟».

هزت فرانسيسكو كتفيها: «أظنه استلم المسؤولية لأنه توقع أن يقفز الناس حين يقول لهم، اقفزوا، كيف عرفت أي نوع من الأجساد لديه؟».

قالت جاز بهدوء: «بالنظر إليه. إنه هناك، رجل طويل يرتدي قميصاً كحلياً. ربما أنت المرأة الوحيدة التي لم تنتبه إليه لحظة دخولها».

رفعت فرانسيسكا يديها باستسلام: «حسناً، حسناً. أنا آسفة بشأن النظارات. ماذا أقول غير ذلك؟».

قالت جاز: «ليس شكله فقط، أريده، أحضريه إليّ».

هزت فرانسيسكا رأسها البني الشعر وقالت بحدة: «أحضريه بنفسك. ماذا تظنيني؟ كلب صيد؟».

فقالت جاز: «أنت هي المسؤولة عن دفتر الإمضاءات وإلقاء الكلمات المسائية. وهذا هو الموضوع الذي يخصك الآن. إذهبي وقدمي إليه عرضاً لا يستطيع رفضه، هذا الرجل غير عادي، إنه طبق شهي».

قالت فرانسيسكا ضاحكة: «كتب الأطباق الشهية هي في القسم المسؤولة أنت عنه، أما أنا فمسؤولة فقط عن كتب العلوم المملة، والأهم هو أنني لا أستطيع رؤية الرجل دون نظارات».

قالت جاز بجفاء: «هذا يعني أنك لن تقتربي منه».

حاولت فرانسيسكا ألا تجفل وهي تقول بحزم: «أنت تريدينه، قومي إذن باغوائه».

ضحكت جاز بصوت عال: «الناشرون لن يهتموا بالجدد المستقلين أمثالنا، لا شك أنهم سيركزون اهتمامهم على المكتبات الكبرى».

سألتها فرانسيسكا: «حسناً، ليس عليه أن ينفّذ كل ما يقوله له ناشره أليس كذلك؟ هل هو رجل ام فأرة؟».

قالت جاز: «إنه كاتب يريد أن يبيع كتابه، فإذا طلب منه الناشر، أو موظفو العلاقات العامة، أن يدهن نفسه باللون الأخضر ويقوم بشعوذات أمام الأطفال، فسيفعل. لن ينظر الينا! لارجاء في ذلك».

لم تكن فرانسيسكا تحب الإلحاح. لكنها ابنة أبيها وهي مثله لا تحب أن يطلب منها أحد القيام بشيء لا فائدة فيه.

أجابتها ساخطة: «لن ينظر إلينا؟».

أخذت جاز تنظر إليها برضا وفرانسيسكا تلقي بنفسها بين الجموع متجهة إلى حيث أمير مونتاسورو. لقد تعلمت في الأشهر الثلاثة التي عملتا فيها أن لا شيء يوقف فرانسيسكا عن ملاحقتها هدفاً.

انطلقت فرانسيسكا في طريقها متفجرة بالحماسة، لكنها لم تكد تخطو ثلاث خطوات حتى بدأت حماستها تخبو. كانت أصغر حجماً من أن تدخل بين هذه الجموع وحاولت أن تكبح حافزاً كان يدفعها إلى القفز طلباً للهواء. شعرت وكأن كل شخص بضعفي طولها، أطول وأكثر ثقة بالنفس وأعلم منها بكثير. وكلهم كانوا يتحدثون من فوق رأسها.

أخذت تتمتم بصوت غير مسموع: وما الجديد في ذلك! ورسمت على وجهها ابتسامة مشرقة. وتبددت الحماسة وحلت محلها قوة الإرادة. . .

ثم أخذت تبحث عنه وكأنها تبحث عن رجل خارج الكرة الأرضية والذين سمعوها تصيح تسأل عن كونراد دوميتيو لم يعرفوا أين هو رغم معرفتهم الاسم، فقد كان كل منهم مشغولاً بالاستمتاع بوقته.

وقفت لتأخذ بعض الكتب، وإذا بها تسمع صوتاً خلفها يسألها: «هل قلت دوميتيو؟».

استدارت، ثم كان عليها أن ترفع بصرها إلى أعلى. ثم أعلى، كان المكان أكثر ظلمة من أن ترى جيداً حتى ولو كانت تضع نظاراتها. لكن حساً بالقوة تملكها. . . وقالت بشيء من الاضطراب: «نعم. أتعرفه؟».

تردد الرجل وحاولت هي عبثاً، أن تركز عينيها عليه، ولكن كان في الرجل شيء جعلها تريد أن تراه جداً.

هزت رأسها، قائلة بحزم: «لأنني أريد أن أتحدث إليه».

فانحنى عليها يسألها: «ماذا؟».

شمت رائحة برية مثل رائحة الغابة أو الشربين، وكانت خفيفة أشبه بذكرى نصف منسية، وفاجأها ذلك.

حثها قائلاً: «فلنذهب إلى مكان يمكننا فيه أن نسمع بعضنا».

خرج بها إلى شرفة صغيرة حيث ابتعدا عن القاعة الخانقة. كان الجو ممطراً، لكن مظلة هناك أبعدت معظم المطر عنهما، ثم أدارها إليه.

هل هو انطباع بالقوة تملكها؟ لا بد أنها جنّت، فلدى هذا الرجل أكثر من مجرد القوة. كان صخرة، صخرة مغناطيسية دافئة ما جعلها تحبس أنفاسها لمجرد وجودها معه، وأخذ شيء في أعماقها يهتز بشكل غير محسوس، مستجيباً لتلك المغناطيسية. سألها: «أتشعرين ببرد؟».

هزت رأسها. لم تثق بنفسها في الكلام فقد جعل صوته أعصابها تتنبه. أخافها ذلك. إنها لا تستجيب عادة إلى رجل غريب بهذا الشكل. وحدثت نفسها بأن هذه ردة فعل لرحيل باري.

أغلق الباب الزجاجي خلفهما، فخفّت ضجة القاعة نوعاً ما.

استطاعت أن تلحظ تحركاته حتى دون نظاراتها، كانت بطيئة لينة كسلى تقريباً. ومع ذلك كانت هادفة. وقررت أنه رجل بَرّيّ بكل تأكيد، ثم التفت إليها قائلاً: «وهكذا، لماذا تبحثين عن كونراد دوميتيو؟».

شعرت وكأنها اصطدمت بجدار. رفعت بصرها إليه. . . متمنية لو أنها أطول. . . ولو أن نظاراتها على عينيها.

اهتزت ابتسامتها المشرقة وهي تقول: «أريد. . . أريد أن أدعوه إلى حفلة توقيع كتاب».

فقال بتكاسل: «توقيع كتاب؟».

كانت تشعر به متيقظاً حذراً. بدا وكأنه كان يراقب وينتقد ويستنتج ملاحظات بالغة الحدة والذكاء هنا الآن، إلا إنه لن يطلع عليها أحداً.

تمنت لو تستطيع رؤية وجهه بشكل واضح، وصممت على أن تشتري

نظارات جديدة صباح غد قبل أي شيء آخر.

حاولت أن تتمالك نفسها، واستطاعت ذلك باستثناء رنين خفيف في أذنيها. ثم قالت: «نعم. فأنا بائعة كتب».

أدركت فجأة أنها المرة الأولى التي تقول فيها ذلك.

ـ أنا جديدة في المهنة نوعاً ما. وقد اتخذت مكتبة مستقلة منذ عدة أشهر.

فقال مفكراً: «وهكذا تريدين أن تظهري نشاطك».

ـ أظن ذلك.

فسألها باهتمام صادق: «هل عملك ممتع؟».

حملقت فيه ولكن حملقتها هذه لم تجعلها ترى بشكل أفضل، مع أنه على الأقل، أخفى حقيقة أن نظرها ضعيف كالوطواط.. وأجابت: «حتى الآن، هو ممتع».

ـ أنت حذرة جداً.

كان من القرب منها بحيث استطاعت أن تشعر في صوته أنه يبتسم فرفعت إليه بصرها ضاحكة: «لا بأس. حتى الآن هو بغيض. ما رأيك في هذا؟».

ساد صمت غريب. وساورها إغراء ساحق بأن تغضن عينيها لتركز نظرها على وجهه فتراه بشكل أفضل، لكنها حدثت نفسها بعنف بأنها لن تفعل ذلك.

أجاب: «إنه مشجع أكثر».

حاول شخص ما أن يفتح الباب خلفهما، فتحرك وبذلك سد الطريق على الخارج إلى الشرفة. وسُمع صوتٌ يعتذر، ثم عاد الباب ينغلق.

لا يمكنها أن تكون واثقة تماماً، خاصة وهي غير قادرة على رؤية وجهه كما يجب.. لكنها شعرت بأنه لا يريد أن يقتحم وحدتهما أحد.

تأوهت فرانسيسكا داخلياً، لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها.

سألها: «أين هي مكتبتك؟».

ـ في شارع صغير جانبي قرب النهر في «فولهام». كانت مكتبتنا في الأصل كوخين من طراز العهد الفيكتوري، خلف مستودعات الغاز، بعد «كينغ رود».

أعطته هذه الإرشادات الدقيقة لأن هذه هي عادتها في الدقة. فضحك وقال: «لا أظنك ترسمين الخرائط؟».

أجابت بشيء من الخجل: «أحب أن أكون واضحة في ما أقوله. آسفة».

ـ لا داعي للأسف، فهذا نافع جداً. ليس لديك فكرة عن عدد الناس الذين يدلونك على المناطق بشكل غير كافٍ، ظانين أنهم على صواب.

فكرت فرانسيسكا في صور الجبال والشلالات التي رأتها في المدخل وسألته: «هل أنت عالم بالجغرافيا؟».

ـ نوعاً ما.

أتراه بائع كتب منافساً يحاول أن يستخرج أسرارها بأسئلته هذه؟ ولكن ما هي الفائدة من ذلك؟

قالت: «طبعاً، عندما أقول: توقيع كتاب، فأنا أعني في الواقع أكثر من هذا. فنحن نقيم لاجتذاب الزبائن إلى مكتبتنا «باز»، مناسبات مسائية، قراءات، أحاديث وما أشبه. إن الناس يتصلون بنا تليفونياً ليسألونا عن المناسبة التالية ونوعها. وقد نقيم أحياناً مناسبة لعرض وترويج عدة كتب».

علمت أنها تثرثر... لكنها لم تعرف لماذا، كان طويلاً ولم يكن الطوال من الناس يرهبونها عادة.

لم يكن مرهباً بالضبط... إنما مسيطراً.. ثمة شيء ما فيه جعلها تتكلم بكثرة وبصوت مرتفع... وكانت طوال الوقت تشعر به ينظر إليها.

تنحنحت قائلة: «وماذا تفعل أنت هنا؟».

أحست بأنه قرر شيئاً ما. وقال: «آه، طائر غريد».

ظنت أنها لم تسمع جيداً، فسألته: «ماذا؟».

فقال: «أنا أغني لأحصل على عشائي، أو يحدث هذا عندما يستدعونني

لمواجهة الصحافة بعد دقائق».

قالت بارتياح: «آه، أنت كاتب إذن!».

قال الرجل الطويل بأسى: «ليس هذا بالضبط. كل ما في الأمر أن مصوراً لصاً أدركني وكنت أنا أضعف من أن أقول له لا».

قالت بارتياب فهي لا تصدق أن من الممكن أن يكون هذا الرجل ضعيفاً: «أحقاً؟».

ضحك: «كان يجب أن تري الصور عل مدخل بركان ثائر بعلوّ عشر أقدام، وذئب يقفز جعل كل شخص يتراجع خطوتين».

ـ لقد فاتتني رؤية الذئب.

ـ هذا أفضل، إنه كالكابوس.

قالت بفضول: «يبدو وكأنك تستنكر ذلك».

ـ أنا؟ وماذا لدي لكي أستنكره؟ لقد كتبت شيئاً وليس عليّ أن أقوم بالدعاية له.

فلم تصدق إنكاره وقالت: «ولكن...؟».

ثم سكتت، فقال: «أنت حادة الطبع أليس كذلك؟ لا بأس، أعترف بأنني لست متحمساً لكتب التسلية تلك، ولم يسبق أن تصورت نفسي مساهماً فيها».

ـ ولماذا فعلت ذلك إذن؟

ثم قرر أن يأخذ الأمر بهزل: «لقد قدموا إليّ مالاً كثيراً حسناً؟ هل انتهت تساؤلاتك؟».

ـ نعم. انتهت.

لكنها لم تستطع أن تتخلص تماماً من الشعور بخيبة الأمل، إذ لم تتوقع أن يُقدم رجل مثل هذا على عمل لا يحبه من أجل مبلغ وافر من المال.

قال بدهاء: «والآن يبدو أنك أنت التي تستنكرين».

تحركت بضيق، قائلة: «من السهل أن تتعفف عن المال عندما يكون لديك الكفاية منه».

قال بشيء من الانفعال: «أنت ذات عقل راجح».

أسرعت تغير الموضوع: «وأنا واثقة من أن كتابك سينجح. الناس يلتهمون هذه الكتب المصورة حالياً، خاصة إذا كان المؤلف امرأة شقراء أو أميراً ملكياً كما أظن».

فقال: «أمير؟».

فأجابت: «نعم. لهذا أردت أن اتحدث إلى كونراد دوميتيو فقد رأيت من النشرة التي وزعوها للدعاية أنهم استطاعوا أن يجعلوه يقوم ببعض مغامرات الغلمان».

ساد صمت طويل... طويل، ثم قال بصوت يحوي أكثر من مجرد الاستنكار: «آه، إذن لهذا كنت تبحثين عنه؟».

تملكها الشك لحظة، لكنها نبذت ذلك حالاً. لا يمكن أن يكون هذا الشخص أميراً هذا الرجل الطويل المشوق. فكل من تعرف من المونتاسورين هم سمر صغار الأجسام كأبيها.

فقالت: «حسناً، إنه في الحقيقة أمير سابق، ولكن يبدو أن بعض الناس يتأثرون به».

ـ بعض الناس، ولكن ليس أنت.

قالت ضاحكة: «لا، ليس أنا، لكنني على كل حال، حالة استثنائية».

ـ أحقاً؟ ألا يستحق الأمراء اهتمامك؟

فضحكت بصوت مرتفع: «لست ضد الحكم الملكي إذا كان هذا ما تعنيه. ولكني أعرف قليلاً عن هذه الأسرة المالكة بالذات».

فقال ببطء أكثر من المعتاد وشيء من الارتياب: «أحقاً؟».

انتصبت تقول وقد أصاب ذلك منها وتراً حساساً: «ولي عهد مونتاسور يطالب بعرش بقعة حقيرة في البلقان مؤلفة من جبلين وساقيتين يسمونهما نهرين، إنها أشبه بمزرعة عائلية منها بمملكة».

ساد الصمت. لقد استحوذت الآن على اهتمامه بكل تأكيد، ثم قال رجل الغابات بتكاسل: «أنت ذات اطلاع كبير».

فقالت: «بكل تأكيد، محصولها الرئيسي القمح والعنب، وسكانها بمعظمهم قطاع طرق».

انفجر يقول بحدة: «قطاع طرق؟ لقد أكملت بحثك حقاً».

ـ المونتاسوريون في المنفى حسنو السيرة، لكنهم كانوا، في الأصل، قطاع طرق في الجبال، ثم استقروا في محطات الطرق، في العصور الوسطى، وشرعوا يأخذون الإتاوات من المسافرين.

فقال: «هذا ليس قطع طرق».

ـ لقد طوّروا هذا فيما بعد، وقد اغتنوا من وراء الخطف والابتزاز والاعتداء قرابة العشرة قرون. ثم ارتبطوا بعلاقات عامة كبرى ومن ثم تحولوا إلى مرتزقة أحرار.

ساد صمت صاعق. ثم قال ببطء: «يبدو أنك خبيرة. هل تخصصت في دراسة تاريخ البلقان؟».

ضحكت ساخرة: «بشكل ما. أبي من مونتاسورو فنشأت على ما كان يقصه عليّ».

صمت آخر أطول، وشعرت به يفكر.. مازال الموقف مربكاً رغم خصامهما، كان الجوّ بينهما يضجّ بذبذبات الإعجاب.. تباً لذلك!

قال: «إنها قصص لا تبعث على الزهو».

فقالت: «حسناً، أبي هو ضد الملكية».

فقال وكأن هذا فسّر كل شيء: «وأنت ورثت عنه التحامل والتحيز».

فتصلب جسدها: «لا، أبداً لا يهمني أمر الملكية بأي شكل. أما ما لا أستطيع احتماله، فهو أن كثيراً من الناس ما زالوا يعيشون في الماضي، ملوك سابقون؟.. يا للسخافة! لا يمكنك أن تمضي حياتك بصفتك شيئاً سابقاً. عليك أن ترسم لنفسك خطاً تسير عليه».

ـ أنت... حقود جداً.

نظرت إليه بارتياك: «لماذا؟ هل لأنني أكره الحنين الزائف إلى الوطن؟».

كان ينظر إليها بتلك الطريقة مرة أخرى، لم تكن تستطيع رؤيته بوضوح، لكن التحفظ كان يفارقه شيئاً فشيئاً.

وكان يقول ببطء: «لأنك رسمت لنفسك خطاً ترفضين التزحزح عنه. كم عمرك؟».

ففتحت عينيها بحدة: «ثلاثة وعشرون، وأنت؟».

ضحك برقة: «اثنان وثلاثون صاعداً نحو المئة في هذه الدقيقة فقط».

فسألته: «ولماذا في هذه الدقيقة؟».

لكن الحظ لم يسمح له بأن يجيب، إذ انفتح الباب الزجاجي بعنف لتنساب منه أصوات الموسيقى. فتنحى جانباً لكي يمر بعض المحتفلين واغتنم الفرصة لكي ينظر في ساعته قائلاً: «المفروض أن أكون الآن في غرفة الصحافة أؤدي واجبي».

فهتفت بغضب وخيبة أمل، وهي تودعه: «آه، أتمنى لك حظاً سعيداً».

فسألها: «هل سأراك فيما بعد؟».

فهزت رأسها: «حالما أعثر على الأمير، سأذهب إلى البيت».

ابتسم بفتور: «تقصدين الأمير السابق».

فقالت بذهن شارد: «أياً كان لقبه».

ـ أنت تحبين أن تكوني دقيقة.

ـ نعم. أظن ذلك.

وكانت ترتجف بشكل غريب فقال: «هذا واضح. حسناً إذن. الأفضل أن نقول وداعاً يا أميرتي الصغيرة».

تفاجأت فرانسيسكا. وشعرت لحظة بموجة من الهواء البارد النقي تغمرها.. لكنها ما لبثت أن عادت إلى واقعها على الشرفة المزدحمة. وقالت بتلعثم: «الـ... الوداع».

حياها قائلاً: «حظاً سعيداً لك أيضاً، أرجو أن تعثري على أميرك السابق».

فرانسيسكا، التي لم يسبق أن أقرت قط بعجزها عن إداء مهمة باشرت بها، فكرت، بأن تتخلى عن مهمتها هذه. لم تشعر برغبة في القيام بأي عمل هذا المساء سوى العودة إلى البيت واستعادة أنفاسها.

لن تفقد تركيز ذهنها على عملها فقط لأن باري دي لا توش تركها، ولأن رجلاً غريباً طويلاً تودد إليها ... لا، لن تفعل! وقالت تحدث نفسها: أنا أحصل دوماً على الرجل الذي أريده.

* * *

٢ـ أشواك بلا ورد

قال كونراد بحزم: «أريد أن أعلم كل شيء عن مكتبة في شارع فولهام قرب مستودعات الغاز. لن أتحرك من هنا قبل أن أعرف اسم صاحبتها».

كانت وكيلة الدعاية تبحث عنه بلهفة متزايدة. قالت متعهدة: «سأبحث لك عن ذلك. تعال فقط الآن وتحدث إلى الصحافيين».

فسألها: «وكيف ستعرفين ذلك؟».

ـ سأسأل. لا بد أن أحداً بين هذه الجموع يعلم.

ـ لكنني لا أعرف اسم المكتبة.

أخذت تحثه على السير نحو الغرفة حيث اللقاء بالصحفيين، وهي تسأله: «ما هو شكلها؟ وكم عمرها؟ بماذا تهتم؟».

ـ إنها سمراء صغيرة الحجم ذات عينين كبيرتين بنيتين تتسعان أحياناً وتدمعان وكأنك أعظم شيء رأته في حياتها. إنها في الثالثة والعشرين، وهي عنيفة.

فقالت موظفة الدعاية مجفلة بعض الشيء: «آه، هذا يكفي لكي يجعلنا نعثر عليها، هل قلت شارع فولهام؟».

وعندما أنهى حديثه عن كتابه «رماد تذروه الرياح» كانت قد عادت: «يبدو أن اسم صاحبته «جاز ألين»، واسم المكتبة «باز». لكن طول جاز حوالى ست أقدام، سوداء اللون ورائعة الجمال».

ـ ليست هي ابحثي مرة أخرى، اسمعي.. هي تعرف الكثير عن

www.elromancia.com

«مونتاسورو»، أو تظن نفسها تعلم. فقد كان أبوها لاجئاً.

أحد الصحافيين الذي تسلل خارجاً من الغرفة أملاً في أن يظفر بحديث خاص مع الأمير السابق، سمع هذا الكلام، فدسّ نفسه بينهما: «أتعني ابنة بيتر هيلير؟».

قطب كونراد حاجبيه وقال باشمئزاز: «هيلير؟ ذلك المحتال؟».

ضحك الصحافي: «أيمكنني أن أنقل عنك هذا الكلام؟ إنه مليونير عالميّ محترم هذه الأيام».

لكن كونراد لم يبتسم بل بدا منزعجاً كل الانزعاج وقال له: «أتريد أن تقول إنّ ابنة بيتر هيلير تضيّع وقتها في مكتبة صغيرة في ظل مستودعات الغاز؟ لا أصدق هذا».

قال الصحافي: «المكتبة ليست صغيرة. لديها أيضاً زاوية خاصة في الإنترنيت وضعتها، كما سمعت، ابنة هيلير بنفسها».

فقال شخص آخر انضم إليهم: «أتعني شريكة «جاز ألين» الجديدة؟ سمعت أنها فتاة غير عادية».

قال الصحافي موافقاً: «نعم. كل شخص يعتقد أن المكتبة ستثير فضول الناس في وقت قصير، حسناً، إنها غنية إلى حد أن تتمكن معه من إدارة عمل صغير كهذا دون خوف من أن تخسر».

فقال شخص آخر متأثراً: «معك حق، فرانسيسكا هيلير ليست شريكة غافلة. إنها امرأة مخيفة دائمة التحدي، و «جاز» تراها رائعة».

قال الصحافي بنظرة جانبية: «وهكذا يراها الأمير كونراد كما يبدو».

لكنه لم يحصل على الجواب الذي رجاه، لأن الرجل الطويل نظر إليه لحظة صامتاً، وعيناه غير مقروئتين، ثم أشاح بوجهه هازاً كتفيه، وقال بحدث موظفة الدعاية دون اكتراث: «هل لك أن تحصلي على العنوان لأجلي؟ فقد وعدتها بأن ألقي لديهم حديثاً في إحدى الأمسيات».

لم يعد إلى سيرة فرانسيسكا هيلير بقية المساء. وبدلاً من ذلك، وزع اهتمامه على كل الموجودين، كما أنه بقي إلى نهاية الحفلة. ولكنه لم ير أثراً

لفرانسيسكا هيلير.

أخيراً ترك الحفلة بخطوات واسعة غير سريعة حتى غاب عن النظر قبل أن يتسنى لأحد التفكير في مناداته للعودة.

* * *

فرانسيسكا، يا له من اسم غريب لفتاة نصف انكليزية ونصف مونتاسورية! شعر وجبين واسع وملامح بشبه ابتسامة غامضة.

طبعاً، لم تكن فرانسيسكا هيلير هادئة هذا المساء لكنها لم تصادفه بصفتها من الجيل الثاني المونتاسوري لكي تخدعه وتستولي على ثقته.

هذا لا يعني أنها تعتبر نفسها مونتاسورية. فكل ذلك الهراء الذي قالته عن قطّاع الطرق! كان عليه أن يتحداها بالنسبة إلى ذلك على الفور. ولم يعرف لماذا سكت. رباه! بل يعرف. يعرف بالضبط لماذا، فقد كانت تنظر إليه بتينك العينين الواسعتين، وكأنها موجودة في حلم، وكل ما كان يريده هو أن يدعها تنظر إليه بهذا الشكل إلى الأبد.

نعت نفسه بالحماقة. والغباء! كل ما كان يهمها هو أن تحصل على أمير لإحدى مناسبات مكتبتها، وكل ما استطاع أن يعرفه هو أنها في العمل بمهارة أبيها، وابنة بيتر هيلير هي آخر شخص في العالم قد يتورّط معها.

نعم، ذلك أفضل. سيتمشى قليلاً ليفكر في كل شيء يعرفه عن أبيها.

ذكّر كونراد نفسه بأنه يعلم كل شيء عن بيتر هيلير ومعاملاته التجارية، وكل الجالية المونتاسورية تعرف ذلك، فهم يعلمون أن هيلير رجل عديم الرحمة مولع بالمكاسب وغير شريف ابداً. وقد سخّر عدة اشخاص من الجالية المونتاسورية لمصلحته بشكل قاسٍ أناني دون أي جرم اقترفه اولئك سوى الترحيب به عند مجيئه إلى لندن.

سيضع فرانسيسكا هيلير الغامضة ذات العينين الندّيتين في مكانها الصحيح لأنها ابنة بيتر هيلير.

ولكن هذا لم يحدث، فقد نفذت فرانسيسكا تحت جلده كشوكة الوردة.

أسرع كونراد في سيره دون أن يلحظ برودة الليل أو المطر المتقطع وكان

يحاول أن يقنع نفسه بأنها غلطة آنية، وأنه لا يريد في حياته امرأة يخجل من تقديمها إلى جده وشعبه... وأنه لا يريد أيضاً في حياته فتاة بريئة غامضة العينين. ثم تذكر كيف رفعت رأسها بخفلة عندما ظنته يسخر منها. وكيف انحبست أنفاسها عندما اقترب منها. وتذكر العينين الكبيرتين المتسائلتين اللتين شعر بهما تنظران في أعماق روحه.

حدث نفسه بأن فرانسيسكا هيلير إما ورثت عن ابيها معاملاته الماكرة، وفي هذه الحالة لا تصلح له. وإما هي فعلاً كما بدت له هذه الليلة... ولكن ليس هناك فتاة في الثالثة والعشرين بهذا الوضوح والغفلة والضعف... وإذا كانت كذلك حقاً...

آه، إذا كانت كذلك حقاً، فإن كونراد دوميتيو ليس بالرجل الذي يصلح لها...

* * *

تخلت فرانسيسكا عن بحثها حالما تركها الرجل الطويل. كان الزحام شديداً، ولم تستطع العثور على جاز. ولأنها لن تعثر أبداً على الأمير الذي لا تعرفه، ارتدت معطفها ثم خرجت إلى حيث الظلام والمطر.

لم يكن سهلاً أن تجد تاكسي دون نظاراتها. أشارت بالوقوف إلى سيارة «رانج روڤر»، ثم إلى شاحنة، وأصبح ضوء إشارة السير برتقالياً قبل أن تجد تاكسي. أعطت السائق العنوان، ثم استندت إلى الخلف في مقعدها وأغمضت عينيها، صباح غد ستشترى ثلاث نظارات. واحدة للبيت وواحدة للمكتبة وواحدة تبقى في حقيبة يدها، الكابوس الذي حدث هذا المساء لن تسمح بحدوثه مرة أخرى أبداً.

لكنه لم يكن كابوساً من كل النواحي، كما همس لها صوت غامض. ذلك أن الرجل الطويل في الشرفة لم يكن كابوساً... بل كان.. ساحراً جداً.

أدركت أن ثمة فرقاً بين التوقع والحقيقة... لقد كانت تتوقع أن تنتهي بها هذه الليلة بعودتها مع باري حيث يخططان لمستقبلهما. ولكن، بدلاً من

ذلك، انتهى بها الأمر في هذه التاكسي التي كانت تخترق بها شوارع لا تكاد تراها أو تميّزها، وتحلم برجل لن تستطيع تمييزه إذا رأته مرة أخرى.

حسناً، قد لا يكون هذا صحيحاً. لأن جوّ السلطة الذي يحيط به كان بالغ التأثير. ربما سيعود ذلك التأثير عندما تستعيد نظاراتها وتتمكن من رؤية وجه الرجل، وتلك الهالة من الطاقة الفياضة ورائحة البراري، تلك الرائحة ستذكرها من مسافة خمسين خطوة.

لم تكن ليلتها مريحة. حاولت أن تأوي إلى سريرها لكنها بقيت تفكر في باري، وفي الرجل الغريب، ثم باري مرة أخرى.

وكانت لحظة تدعو إلى السخط عندما وجدت نظاراتها الجيدة خلف وسادة الأريكة، وتذكرت عندما رفعها باري عن عينيها.

عليها أن تنسى رجل الشرفة ذاك وتفكر في باري. فهي تعرفه على الأقل.. أو تظن أنها تعرفه.

الآن وهي وحدها، أخذت تتذكر أن باري كان دوماً يبدو وكأنه يصاحب فتاة أخرى، وبعد أن تعرف إليها انتحل لذلك عذراً بكل سهولة، والآن وهي تفكر في ذلك، أدركت أنه لا بد كان يخادعهما الإثنتين، رباه، ما أفظع حكمها عليه!

تخلت عن النوم وأخذت تجول في أنحاء شقتها الفارغة في معطفها المنزلي القرمزي اللون.

تسرّبت الدموع من عينيها فمسحتها بغضب لكنها لم تبك قط، فماذا حلّ بها؟

إنها لا تفتقده. إنها لم تعرفه قطُّ فكيف تفتقده؟ كانت تفتقد الحنان فقط. حسناً، ليس هناك رجل عاقل يشعر بالحنان حقاً نحو امرأة تجد أسهل عليها أن تعدّ وتحسب من أن تدع مخيلتها تنطلق. هي التي ورثت شكلها عن أبيها الذي يشبه سكان الكهوف الأوائل. والتي تضع نظارات مربوطة إلى بعضها البعض بشريط لاصق.

حتى ذلك الغريب ما كان ليتحدث إليها لو أنّ الظلام لم يستر وجهها

عنه.

لا، لا، لم يكن ثمة مكان لها في مجال الإشباع العاطفي. وقد أثبتت ذلك حوالى عشر مرات خلال سن الرشد وحدثت نفسها بأن عليها أن تعتاد على ذلك وتكتفي بمهنتها. وبهذا، على الأقل، يكون لها حظ في النجاح.

وهكذا، كانت في الصباح التالي قد أنهت تنظيم مناضد الكتب عندما وصلت جاز، فبادرتها فرانسيسكا قائلة: «آسفة لأنني لم أستطع أن أعثر على الأمير لأجلك».

أخرجت جاز «ترموس» من كيس ورقي وأزاحت غطاءه البلاستيكي ثم ناولتها إياه.

ثم قالت متفلسفة: «هذا لا يدهشني لقد نجحت في أن اتبادل الحديث مع «موريس دبلون» الذي سيقيم حلقات دراسية حرة للمؤلفين الجدد في مكتبتنا، وذلك في الشهر القادم، ماذا عنك؟».

هزت فرانسيسكا رأسها: «التقيت فقط برجل أراد أن نخرج إلى الشرفة ونتحدث تحت المطر».

رفعت جاز حاجبيها الأنيقين: «هذا مثير».

ودهشت حين احمرت وجنتا فرانسيسكا قليلاً، وقالت متأملة: «لا أراك فعلت شيئاً كنت أنا سأفعله لو كنت مكانك، أليس كذلك».

فقالت فرانسيسكا مضطربة بشكل عادي: «طبعاً لا».

ضحكت جاز بصوت مرتفع، فقالت فرانسيسكا:

- لم أقصد ذلك. حسناً، كفى ضحكاً عليّ. رباه! وكيف أعرف ماذا كنت ستفعلينه.

رشفت جاز قهوتها: «في الحقيقة، ما كنت لأستطيع القيام بالكثير على شرفة تحت المطر».

ونظرت إلى فرانسيسكا متأملة: «لا بد أن الجو كان بارداً جداً».

أجابت: «آه... نعم، ربما. أنا... لم ألاحظ في الحقيقة».

رشفت جاز مزيداً من القهوة: «آه... كم لبثتما في الشرفة؟».

فأجابت فرانسيسكا بشيء من التمرد: «لا أتذكر».

فقالت جاز: «آه، هذا مثير للخيال كما أرى».

لم تستطع فرانسيسكا أن تمنع نفسها من الشعور برجفة خفيفة لا إرادية. وأدركت أن جاز لاحظت ذلك. وقالت دون وعي: «وماذا كان بإمكاني أن أرى منه؟ هذا يذكرني... هل لك أن تعطيني نظاراتي الاحتياطية من فضلك».

لم تقل جاز شيئاً. فقالت فرانسيسكا: «اسمعي، لا يمكنك أن تظني أنني انجذبت إليه بشكل جاد. فأنا لم أره سوى مرة واحدة».

فقالت جاز: «التجاذب عادة يحصل على الفور، ولا يمكنك أن تفعلي شيئاً تجاهه. حسناً، بإمكانك أن تختاري بين الاستمرار فيه أم الهرب منه.. فالتجاذب قد صعقكما لتوّه».

ارتجفت فرانسيسكا مرة أخرى. حتى شعورها نحو باري لم يكن صاعقاً تماماً، ليس بالشكل الذي تعنيه جاز. فقالت بعنف: «اسمعي. كنت أظن، حتى أمس، أنني أحب باري، لذا لست مستعدة الآن لتلقي صعقات الانجذاب».

بدت ابتسامة واسعة على شفتي جاز، فكادت فرانسيسكا تجن، فصاحت بها بقنوط: «ماذا؟ ماذا؟».

محت جاز الابتسامة عن فمها، وقالت: «كما تقولين».

قالت فرانسيسكا بكبرياء: «أعطيني نظاراتي. لديّ عملاً أريد القيام به».

أعطتها جاز ما طلبت، ثم ذهبت فرانسيسكا إلى غرفة المخزن وهي تهمهم.

تبعتها جاز أخيراً وقالت لها: «أنا أعرف أنك لم تعثري الليلة الماضية على الأمير، لكنني أظن إن بإمكاننا أن نقيم محاورة مثيرة ذات مساء، إذا استطعنا أن ندعوه».

لم تكن فرانسيسكا قد صفحت عنها بعد، فرفعت نظاراتها فوق أنفها

وقالت: «إنه اللجوء الرخيص إلى معالجة الموضوعات المثيرة».

فقالت جاز: «نعم، هذا ما ظننته. لكنني نظرت في كتابه الليلة الماضية. هل قرأته؟».

رفعت فرانسيسكا أنفها في الهواء فقالت جاز: «لا أظنك قرأته، إنها قصة جهنمية بقدر ما هي علمية».

فقالت فرانسيسكا: «أهكذا؟».

أجابت جاز: «ولهذا، ادعيه... تحدثي إليه، أخبريه بمبلغ أهمية زبائننا».

نسيت فرانسيسكا أنها أخبرت ذلك الغريب الليلة الماضية بهذا الشيء نفسه، فسألتها: «ولماذا أفعل ذلك؟».

كانت جاز مستعدة لهذا السؤال، فأبرزت لها من وراء ظهرها ورقة لامعة، وهي تقول: «انظري إلى هذه».

نظرت فرانسيسكا، فاستطاعت هذه المرة أن ترى الصورة الفوتوغرافية، كانت رائعة الجمال باللونين الأبيض والأسود.

كان وجهاً مؤثراً مثيراً للإعجاب. لم يكن وسيماً بالشكل المتعارف عليه، فقد كان أكثر قوة من أن يكون جميلاً بوجنتيه العاليتين وأنفه البارز المنحني وعينيه اللامعتين. لكنه كان وجهاً لا يمكن نسيانه بسهولة.

وارتجفت فرانسيسكا لسبب يتعذر تفسيره.

قلبت الصفحة. بالإضافة إلى التعريف بالكتاب، كانت هناك صورة أخرى، من الكتاب هذه المرة، وبألوان رائعة أظهرت لونه الذي لوحته الشمس بشكل بديع. كان قميصه قد فقد معظم أزراره بشكل واضح. بينما هو يلوح بفأس فوق رأسه، ضاحكاً. كان مفروضاً أن تجعله الجبال المكللة بالثلج خلفه يبدو صغير الحجم، لكن هذا لم يحصل. لم يكن ذلك لأن كونراد دوميتيو كان طويلاً بشكل غير متوقع، بل لأنه كان هناك تلك الثقة المتكاسلة بالنفس، والفم المرن. وتلك الضحكة في عينيه الثابتتين.

وفكرت فرانسيسكا فجأة في أنها لا تستطيع التعامل مع رجل له مثل

هاتين العينين.

لكن جاز لم تشاركها تحفظها وهي تقول: «إنه حلم النساء. كل الرجال سيرغبون في أن يكونوا مثله ويبدو أنه أنزل المجموعة من البركان بمفرده».

وقرأت بصوت مرتفع: «لماذا يستلم الصبي الجديد المسؤولية بين المجموعة؟ هل لأن كونراد في الثانية والثلاثين وهو متسلق صخور أم لأنه مبرمج بالوراثة للحكم؟».

حدثت فرانسيسكا لنفسها بأن عليها أن توقف خفقان قلبها المراهق هذا لأن هذا هراء. قالت ساخرة: «مبرمج بالوراثة لاستلام الحكم!».

هذا مضحك! إنه مجرد رجل متسلط اعتاد أن يرمي بثقله هنا وهناك.

فقالت جاز: «بهذا العمل أنقذ أرواحاً كثيرة. والكتاب من السهل الحصول عليه».

أعادت فرانسيسكا قلب الورقة ونظرت إلى الصورة، قائلة: «وهكذا المؤلف، كما يبدو».

كبحت جاز ابتسامة وقالت بنظرة استعطاف: «آه، أرجو ذلك».

ضاقت عينا فرانسيسكا: «لا تمنحي الأمراء أي قدر من الاعتبار ولا مقالة جذابة كهذه حتى».

فقالت جاز تتملقها: «علينا أن نستغلّ أمسية مع الأمير الجميل، يا فرانسيسكا».

تنهدت فرانسيسكا: «حسناً، سأتصل بالناشر».

فقالت: «سبق أن اخبرتك بأنهم لن يهتموا بنا. نحن أقل أهمية من ذلك. عليك أن تتصلي به مباشرة، هاجميه بسحرك».

قالت فرانسيسكا ساخرة: «سحري؟ أنا؟ هذا حلم».

وفكرت قليلاً ثم عادت تقول: «لا بأس. إذا لم يتصل بنا الناشر، فسأتصل بالجالية المونتاسورية سائلة كم سيكلفنا».

فقالت جاز مجفلة: «يكلفنا؟».

قالت فرانسيسكا ساخرة: «أن نستأجر أميراً، كيف تظنين أنّ هؤلاء

الأمراء السابقين يحصلون على خبزهم؟ إنهم يؤجرون ميزتهم الوحيدة».

نظرت جان إلى ذلك الوجه القوي في الصورة، وتمتمت تقول بمكر: «هل قلت ميزته الوحيدة؟».

قالت فرانسيسكا شامخة: «ما أسهل ما تعجبين برجل».

فقالت جاز: «أنا؟ هذا هراء. كل شخص يعلم أنني صعبة الإرضاء. أنت هي الغريبة الأطوار لأنك تركت نفسك مشوشة مرتبكة مع باري دي لا توش!».

أجفلت فرانسيسكا: «استمري. قولي كل شيء. لماذا سكتّ؟».

فأجابت جاز: «لا أصدق أنك فكرت حقاً في الزواج بباري».

كانت فرانسيسكا قد أمضت ليلة سيئة، مفكرة في ذلك الموضوع فقط.

قالت بعنف: «كل ذلك يظهر أنني لا أميزّ جيداً وأنني أتجاوب مع الحنان بشكل زائد عن الحد».

هزت جاز رأسها: «ولماذا لم تقولي شيئاً؟ كان بإمكاني أن أخبرك عن كذبه وزيفه».

لم تكن فرانسيسكا مسرورة لسماعها هذا، فسألتها: «هل كان يمكنك ذلك؟ باعتبار أن كل من ينجذب لي غشّاش؟».

ردت جاز بحدة: «لقد زعم باري أنه كاتب مسرحي، مع أنه لم يسبق أن خط قلماً على ورق. والواقع أنني لم أعلم قط أنه كان يدعي الانجذاب إليك، لقد ابقيتما الأمر سراً».

حوّلت فرانسيسكا نظراتها بعيداً وقالت: «كانت فكرة باري أن من غير المناسب أبداً أن يخرج الرجل مع المرأة التي يعمل معها... وهكذا صدقته».

شتمت جاز بصوت منخفض، بينما عادت فرانسيسكا تقول بحزم، مشرقة الوجة: «بإمكاني أن أعتبر هذا درساً مفيداً».

سألتها جاز وهي تتفحصها بدقة: «هل أحببته حقاً؟».

ساد صمت قصير قالت فرانسيسكا بعده بصوت خافت: «هذا ما ظننته».

رفست جاز، وهي الهادئة عادة، سلة المهملات بقدمها وهي تقول بحقد: «يا له من ضفدع سام!».

قالت فرانسيسكا متأثرة: «هيه... سأنسى ذلك. يكفي أنني تعلمت درساً كهذا، وسأعود طبيعية».

* * *

وكما توقعت جاز، لم يساعدها الناشرون بشيء فقد قالت السكرتيرة: «صدقيني ليس في مفكرة سموّه مكان لمزيد من الظهور شخصياً في مكان عام».

وهكذا فشلت خطة فرانسيسكا، ولم تكن مسرورة لذلك، طبعاً، بعد أن أقحم أبوها نفسه في حياتها العاطفية. كانت قد رفضت أن تراه. كانت، في الواقع، متمسكة بكرامتها إلى أن قال لها (لكنني كنت على صواب، وأنا دوماً كذلك)، عند ذلك فقدت أعصابها وأخبرته بأن يعود إلى نيويورك.

وهكذا، أن تتصل به الآن وتطلب منه العون للاتصال بأسرة مونتاسورو المالكة، هو مذلة حقيقية لها. لكنها عادت تقنع نفسها بالقيام بذلك بعد أن تذكرت أنه طالما أعلن أن لا وقت لديه للأسرة المالكة، وهكذا لن يقدمهما إلى الأسرة المالكة بنفسه، وإنما سيوجهها إلى صديق صديقه ليقوم بذلك عنه، هذا إذا شاء أن يساعدها.

وهكذا اتصلت به.

لم يكن بيتر هيلير قد عاد إلى نيويورك، ولكنه كان يتناول الغداء في مكان ما فخم، فقد سمعت أصوات أدوات المائدة تقرقع.

قالت وهي تحاول أن تنسى لقاءهما الأخير: «مرحباً يا أبي، كيف حالك؟».

فقال مسروراً: «فرانسيسكا، إذن فقد صفحت عني لأنني كنت على حق؟».

تخلت عن المقاومة، قائلة: «شكراً، أنا بخير، أنا بحاجة إلى خدمة».

ـ اطلبي. ولكن بسرعة لأن لديّ ضيفاً.

اختصرت طلبها بجملة واحدة. وتلا ذلك صمت قال أبوها بعده ببطء: «أتريدين أن تقابلي الأمير كونراد؟».

أجابت: «نعم».

ساد صمت آخر أطول. ثم قال أبوها فجأة: «يمكنني تدبير هذا الأمر. وسأتصل بك فيما بعد».

ثم قطع الاتصال حتى قبل أن تتمكن فرانسيسكا من شكره، ربما كان هذا أفضل بالنسبة إلى الظروف.

وما كانت لتتفلسف بهذا الشكل لو أنها رأت وجه أبيها بعد أن أقفل تليفونه الخليوي ووضعه في جيبه. أسند ظهره إلى الخلف في كرسيه الوثير، وابتسم عبر المائدة. بدا لمضيفه العجوز، أشبه بقط عثر على صحن قشدة، ولم يكن معتاداً على هذا، فشعر بالضيق.

ومنحه مضيفه ابتسامة عريضة عريضة، ثم انحنى إلى الأمام يقول: «والآن، لديّ معاملة لأجلك...».

* * *

قال كونراد دوميتيو بحزن: «لا. أبداً».

كان لديه موقف ضد مشاريع جده اللاعقلانية، وقد علمته التجارب بأن يقول (لا) باكراً ويبقى على قوله هذا.

فقال جده: «لكنك لم تسمع فكرتي بعد».

بدا على وجهه الأشبه بوجه ضفدع منضن، مزيج من الأمل وجرح الكرامة.

خفض حفيده الطويل بصره إليه بتفهم كبير، كانت الريح التي تهب عبر الملعب تعبث بشعر فيليكس دوميتيو الخفيف، فارتجف. أخرج كونراد قفازين من جيب معطفه وناوله إياهما، لكنه لم يلن وهو يقول: «لست بحاجة إلى سماع ذلك. لقد خرجت من سريرك صباح سبت ممطر وقبل الثامنة، لكي تخبرني بهذا.. وهذا يعني أنك تعلم أنني لن أوافق».

فقال جده نائحاً: «أنت كثير الشك».

وأدخل يديه في القفازين ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه للتدفئة. لم يكن حذاؤه المصقول مصمماً للسير على هذا الإسمنت الذي تغطيه المياه القذرة والرمال، وبدا الحذاء مبتلاً بالماء.

وقال كونراد بجفاء: «علمتني التجارب».

كان وجهه أسمر متحفظاً، لكنه أثناء جلسات السبت هذه، كان يبدو دوماً وكأنه على وشك الضحك.

كان الجد يعلم أن التسلية ليست بشير خير بالنسبة إلى خطته الكبرى، فشبك يديه المكسوتين بالقفازين فوق صدرته القديمة الطراز، ثم قال: «لكنه سبب جيد».

أجاب كونراد: «هذا صحيح بكل تأكيد، وهذا هو السبب في أنني مسافر إلى مونتاسورو حالما يجهز ذلك المستشفى المتحرك».

فقال الجد بانتصار: «حسناً، إذن، فكرتي صغيرة سهلة التنفيذ نسبياً، كل ما عليك أن تقوم به هو أن تلبس بذلة ضابط في سلاح الفرسان وتكون مهذباً مع الناس».

تصلب الوجه الأسمر: «أتعني أن أتبختر في الأنحاء، مزيناً صدري بأوسمة لا أستحقها؟».

قال الجد: «بل أنت تستحقها، فأنا أنعم بها على من أريد».

فهز كونراد رأسه: «لم تفهمني، أليس كذلك؟ لا بأس يا جدي، أنا لم أكتسب ميداليات. هل هذا واضح؟».

أحنى الجد كتفيه وقال بتكدر: «يا لك من مترفع».

لكن كونراد عاد يضحك قائلاً: «آسف يا جدي».

أحكم الجد معطفه حوله، ثم عاد يضرب الأرض بقدميه. ثم قال بحيرة: «خذ هذا المكان، مثلاً، أنت تعلم أن عمتك قد قدمت إليك الغرفة الكبيرة في المنزل القائم في «برينزغيت» بدل أن تجر نفسك إلى مساكن المزرعة التعيسة، الموحشة».

ساد صمت. وأخيراً قال كونراد بإيجاز: «عليك أن تخرج أكثر من

بيتك، لأن في المزرعة مساكن ممتازة، فهناك يلعب الأطفال، وأنا أعلّمهم لغة أجدادهم، أنا اعرف سبب قيامي بذلك، لكنني لست واثقاً أبداً من سبب قيامهم بذلك، فهم يفضلون أن يتفرجوا على التلفزيون أو يقوموا بألعاب الكمبيوتر. وإذا أنا لم أذهب إليهم فقد يقلب هذا التوازن، ولن يأتوا عندئذ».

فقال الجد بسرعة: «الحق معك بالتأكيد فأنا لم أكن أفكر، ربما بسبب هذا الصباح الممطر والقدمين المبتلتين. والآن، لقد قدّم إليّ بيتر هيلير عرضاً بأن يموّل المستشفى الجبلي لأول سنة...».

ساد صمت مريك، ورأى فيليكس كونراد ينظر إليه بعدم تصديق، وأخيراً قال: «أنت بحاجة فعلاً إلى الخروج بشكل أكثر. هيلير ماكر كالثعلب، فهو لا يمنح شيئاً دون ثمن، على الأقل المال».

لكن فيليكس كان يفكر في أن هذا ليس أول شيء كان ينوي قوله، فقال: «حسناً، ربما، لكنه هذه المرة يريد بإخلاص أن يقدم عوناً».

فقال كونراد: «لا. هذا غير صحيح. لم يحدث قط أن كان لبيتر هيلير حافز خال من الغرض، في حياته».

كان الأولاد قد بدؤوا في الوصول، فأخذ كونراد يحييهم أثناء مرورهم.

تنهد فيليكس بحدة، وهو يفكر باكتئاب، أي ملك كان كونراد سيصبح، وهو بمثل هذا الذكاء والفطنة. وتمالك نفسه. قد يعود ملكاً إذا تغيرت الأمور إلى ما يرجوه، طبعاً إذا استطاع اقناع كونراد.

وكان كونراد يقول: «لا يمكنك أن تثق بكلمة يقولها بيتر هيلير».

حول فيليكس عينيه بعيداً. ولحسن الحظ، كان كونراد ينظر إلى ولدين وصلا لتوهما وأخذا يخططان أرض الملعب، فلم يلحظ شرود جده وأكمل الحديث بيقظة الصقر: «إنه يريد بذلك أن يكسب مزيداً من المال. ما الذي يظن أن بإمكاننا أن نقدم إليه؟ أن نستخرج له رخصة؟».

أخذ فيليكس يتفحص السماء الغبراء ثم قال: «لا!».

ثم قال مخاطباً الغيوم: «ربما حباً بوطنه».

لكن كونراد لم يتأثر: «يحب وطنه؟ بيتر هيلير؟ لقد كان يتفقد أحوال محبي وطنهم من المونتاسوريين في لندن منذ عشرين عاماً، فزاد أكثرهم فقراً، إنه (مخلص معاملات)».

فتمتم الملك السابق بأسى: «مخلّص معاملات غني».

فهز كونراد كتفيه: «كان فتى طموحاً عندما خرج من مونتاسورو منذ سنوات وما زال فتى طموحاً الآن. ليس علينا أن نتعامل معه».

فقال بمكر: «لهذا جئت إليك، أنت تعلم أنني أقدرّ نصائحك حقاً، عندما تعرف بقية فكرتي...».

لكن حفيده كان أحد الناس القلائل في العالم الذين لا يستطيع الملك السابق فيليكس أوف مونتاسورو أن يناوره، فقاطعه كونراد بجفاء: «لا. مهما كانت فكرتك، فالجواب هو هو، لا سبيل إلى ذلك. لا. والآن، اذهب، لأن لدي عملاً».

ولكن هذا لم يثن فيليكس فقال: «لا. ليس لديك عمل، فالأولاد مسرورون للغاية».

وأخذ يلوّح بيده للأولاد المبكرين الذي كانوا يلغطون بسرور.

قال كونراد: «وهذا ما يقلقني».

وشمل ملعب المدرسة بنظراته بكل أقسامه وقد ضاقت عيناه، مركّزاً بشدة، ليس فقط اهتماماً بل يقظة وسهراً كالصقر.

قال جده: «فكر لحظة يا كونراد، ماذا سيكلفك هذا؟ ما الذي سيكلفك حقاً أن تقوم بهذا الشيء البسيط لأجل بلادك».

لم يحوّل كونراد نظراته عما يجري في الملعب وهو يرد عليه قائلاً: «لا تتصرف معي كلاجيء عجوز يا فيليكس، لا تنسَ أبداً أن بإمكاني أن أفهم مقاصدك».

فقال جده: «لا بأس، لكنني أريد فقط عطلة أسبوعية من حياتك. هل هذا كثير عليّ؟».

أجاب كونراد: «نعم.. كثير جداً إذا كان هذا يتطلب مني أن انسجم مع بيتر هيلير».

بدرت من جده إشارة تنبىء بصدمة وخيبة أمل فخفض كونراد بصره لينظر إليه. كان قد اجتاز جده طولاً عندما أصبح في الرابعة عشرة، وهو الآن يشرف بقامته على الرجل العجوز. ولم يكن يختلف عنه بالطول فقط، بل بوجنتيه العاليتين وعينيه الثابتتين اللتين كانتا سوداوين تقريباً، كانتا عينين مرهبتين، وكان يعتمد عليهما في حفظ النظام في الملعب، بقدر ما يعتمد على سرعة التصرف، الشخص الوحيد الذي فشل في إرهابه في الخمس سنوات الأخيرة كان جده.

قال كونراد متأثراً: «إنني أتفرّغ الآن كل صباح سبت، لكي أستطيع تعليم الأولاد الذين لا يريدون تعلم لغتهم... هذه اللغة التي لن يستعملوها أبداً».

وأضاف بمرارة: «وأنا إلى ذلك غير ماهر مع الأولاد».

قال جده ضاحكاً: «للمركز التزاماته. أنا لا أمانع في أن أقايض مركزي ببقائي صباح السبت أحياناً في فراشي».

فرفع كونراد حاجبه ساخراً: «أحقاً؟ أظنك تريد مني أن أؤجر نفسي للمشاركة في أعمال بيتر هيلير؟».

وفجأة، تحوّل انتباه كونراد وقال: «يا إلهي، سيشنق ذلك الوحش الطفلة بضفيرتها».

نظر كونراد إلى ذاك الصبي وصرخ به: «غليغور، أترك دوروتيا وشأنها».

وقف الصبي مكانه ولكن دون اقتناع كامل.

استدار كونراد ووجه إليه نظراته المسيطرة: «إذا لم تفعل ذلك فسأقلع بنفسي كل سن في فمك بالكلاّب».

وبدا التفكير على الصبي ذي العاشرة.

وتنهد جلالة الملك بكآبة: «أي حاكم عظيم ستكونه».

قال كونراد بخشونة: «لا. لن أكون كذلك. وإنما سأكون راصداً جيداً للزلازل، ومعلماً أحياناً يثير الرثاء. إقنع بهذا».

قال الملك: «لكنك وريثي أيضاً».

نظر إليه كونراد، وساد صمت خطر. ولأول مرة، لم يبسط فيليكس يديه قائلاً إنه كان مبالغاً في تصرفاته. بل قال برزانة: «الحياة غير جيدة في مونتاسورو. النظام القديم قد انهار وليس هناك مكانه إلا المجرمون. والناس يموتون جوعاً، يا كونراد».

قال كونراد بفظاظة: «أعرف هذا، ولكنك فعلت كل ما بوسعك. ربّاه! لا يبدو وكأن الأسرة عاشت هناك لمدة ستين عاماً...».

قال جده ببساطة: «حكمت أسرة دومينيتو الجبال مدة ثمانمئة عام، وكنت هناك بنفسي إلى أن...».

وسكت فجأة.

كان كونراد يعلم إن جده طاف بالجبال إلى أن أصبح في السابعة عشرة. عند ذلك استلم الشيوعيون الحكم أخيراً فهرب فيليكس عبر الجبال إلى إيطاليا.

وضع كونراد ذراعه حول جده، وكانت هذه لفتة نادرة منه.

قال فليكيس بلهجة لا أثر فيها للتمثيل: «لدينا واجب».

وساد صمت حاد، قال فيليكس بعده: «لو كان أبوك حياً، لما طلبت منك شيئاً».

تحرك كونراد بخشونة إذ لم يسبق لأي منهما قط أن أتى على ذكر ابن فيليكس الوحيد. وما دام جده استطاع أن يحمل نفسه على ذكر ابنه فهذا يعني أن مشروعه أهم من أي شيء آخر حدث منذ وقت طويل.

فقال بضعف: «لا بأس أنت انتصرت. سآتي إلى الغداء وأكون لطيفاً مع بيتر هيلير. وسأستمع حتى إلى ما سيقوله، ولا تطلب مني شيئاً أكثر من ذلك. اتفقنا؟».

كان فيليكس أكثر خبرة وديبلوماسية من أن يشمت به متباهياً

بانتصاره، فقد قال برزانة: «هذا شيء حسن منك، يا كونراد. جدتك ستتطلع شوقاً إلى ذلك».

نظر كونراد إليه بحدة وقال منبهاً: «هذا كل ما سأفعله، يا فيليكس. سأستمع فقط. ليس هناك وعود أبداً».

وافق جده: «حسناً، لا وعود، ولكنك ستستمع. هذا كل ما أطلبه منك».

بدأت ساعة الكنيسة القريبة تدق ساعة واحدة، ولم يهتم الأولاد. فرفع كونراد رأسه وأطلق تلك الصرخة التي كان آل دوميتيو قد اختصوا بها حين كانوا ينادون بعضهم بعضاً من رؤوس الجبال المكسوة بالغابات.

توقف أكثر الأولاد عن اللعب، وشكلوا صفاً أمام باب المدرسة على كره منهم.

***

٣ ـ إهانات بالجملة

قالت فرانسيسكا: «والآن أخبرني إلى أين نحن ذاهبان بالضبط؟».

كانت جالسة مع أبيها في سيارة أجرة سوداء. وكان قد أخبرها أنه سيأخذها إلى الغداء مع صديق قديم للأسرة. لكنها عادت فتذكرت أن لدى امها فقط اصدقاء، أما اصدقاؤه فهم مثله، أشبه برعاة البقر.

ما كان أي من أصدقاء أبيها المقربين ليستحق أن ترتدي لأجله هذا الثوب الحريري المجلوب من باريس، والحذاء العالي الكعب. كان الثوب بلون القشدة والعسل والذهب ويلزمه تنظيف على البخار كلما خرجت به مرة واحدة، أما الحذاء فقد كاد يسبب لها العرج، وكان أبوها قد طلب ارسال كل ذلك إلى مكتبتها في صناديق بيضاء مذهبة، قائلاً: «أريد منك أن تظهري بشكل جيد».

ارتدت الملابس الجديدة هذه، وجعلت بقية اليوم عطلة. وها هي ذي الآن تبدو حسنة المظهر ولكنها ما زالت لا تدري لماذا كل هذا.

كما أن شيئاً من تصرفات أبيها أشعرها بالضيق. نظر من النافذة إلى شرفة الفندق الأرضية الواسعة الأنيقة وتردد. وازداد فضول فرانسيسكا فليس من عادة أبيها أن يتردد.

استدارت إليه في التاكسي ونظرت إليه بعينين ضيقتين لامعتين: «من هو؟ اعترف يا أبي».

وبعد لحظة، قال: «آل دوميتيو».

لم تفهم: «من؟».

www.liromancia.com

فأجاب: «الملك والملكة السابقان فيليكس وأنجليكا».

قطبت فرانسيسكا جبينها، مما تعرفه أن علاقة أبيها مع الأسرة المونتاسورية المالكة في المنفى علاقة يشوبها التوتر...

قالت وهي تراقبه بدقة: «لم أكن أعرف أنهما من أصدقاء الأسرة».

فقال: «لم يكونا كذلك حتى الآن. إنما أرجو أن نصبح أصدقاء حميمين في المستقبل».

كان سريعاً دوماً في تصرفاته، وشعرت فرانسيسكا بالتسلية رغماً عنها.

قالت: «لا بأس. ولكن لماذا أحضرتني معك؟».

بدت الحيرة على بيتر هيلير وهو يقول: «لكنك طلبت مني ذلك».

فقالت: «ماذا؟».

ـ قلت إنك تريدين أن تقابلي الأمير كونراد.

فقالت وقد فهمت أخيراً: «آه. لم أقصد، في الواقع، غداءً رسمياً بكل المظاهر الملكية. كنت أفكر في تناول كوب شاي في مقهى ذات أمسية».

لكن أباها لم يقتنع.

ـ لقد أزلت كل المعوّقات لكي أرتّب أمر هذا الاجتماع.

قالت: «حسناً، أظن أنه كان بإمكاني أن أحاول لقاءه لتناول كوب شاي».

لم يكن لديها كثير من الخبرة بمقابلة الأمراء. وسألته: «هل سيكون عليّ الانحناء لأحد؟».

أجفل قائلاً: «لا».

اعتدلت فرانسيسكا في مقعدها وهي تخفي ابتسامتها. لا بأس. فهذا أبوها الذي تعرفه، وقالت: «أردت أن أتأكد».

فقال متضايقاً: «أرجو أن تتصرفي بأدب».

ـ أراهن على أنك ستكون كذلك.

فقال عاتباً: «فرانسيسكا...».

لكنهما كانا قد وصلا، فقد وقفت سيارة الأجرة امام مبنى فخم.

نسيت فرانسيسكا ما كان أبوها يريد أن يقول وهي تهبط من العربة بحذر، ثم انتصبت واقفة على كعبيها العاليين النحيفين.

سوّت موضع نظارتها الجديدة الحديثة الطراز والمؤطرة بالذهب على أنفها، ثم استندت إلى ذراع أبيها وهو يقودها إلى الداخل.

كثيراً ما كانت فرانسيسكا تذهب إلى غداءات رسمية. لكنها لم تذهب قط إلى حفلة غداء رسمية في ڤيلا فخمة الأثاث، ديكورها هو شيء بين قاعة العرش وحانوت أثاث قديم تافه.

هتفت الملكة السابقة انجليكا عندما أشار زوجها للضيفين بالدخول إلى الغرفة المشمسة: «آه».

كانت تضع حول عنقها قلادة تنتهي بياقوتة رائعة، وعلى وجهها أمارات ضيق. وفكرت فرانسيسكا في أنه كان عليها أن تنحني، وقالت الملكة: «ما أجمل أن أراك أخيراً يا آنسة هيلير! فقد سمعت الكثير عنك».

نظرت فرانسيسكا إلى أبيها بعنف: ما الذي كان يقوله عنها؟.

لكنه كان مشغولاً عنها بمصافحة الملك السابق، متعمداً ذلك نوعاً ما. وهكذا قالت بمرح: «هذا يبعث دوماً على شيء من الخوف. فهو أشبه بإعلان على الجدار عن (المطلوبين) للشرطة».

ابتسمت مضيفتها. ولكنها لم تكن ابتسامة البتة بل مجرد انفراجة لشفتيها المصبوغتين بحمرة متألقة.

لكنها قالت بلطف: «ليس ثمة شيء من السوء بحيث يتطلب وضع ثمن لرأسك».

القت على ابيها نظرة لوم حارقة. كان عليه أن ينبهها إلى أنهما جاء لترميم الجسور، على الأقل بالنسبة إلى الملكة السابقة. أما الملك السابق، الذي كان أشبه بالضفدع، فقد بدا سعيداً للغاية بالترحيب بفرانسيسكا. وهو أيضاً لم يبد أنه يريد منها أن تنحني له، بل صافحها بحماسة. قالت الملكة السابقة انجليكا بعذوبة مصطنعة: «حسناً، أنت لم تلتزمي أي عمل بشكل ثابت، اليس كذلك يا عزيزتي؟».

آه. . وانتصبت فرانسيسكا في جلستها. فهي غير مستعدة لتلقي النقد من وطواط عجوز قابلتها للتو، فقالت بابتسامة متألقة: «أظن أن من الخطأ الكبير أن يلزم الإنسان نفسه بشكل مبكر. وهكذا أغتنم الفرصة لكي أرى العالم واكتسب خبرة في مختلف الأمور».

واشتبكت أعينهما.

رأت فرانسيسكا أن المعركة قد جاءت. وأومأت الملكة السابقة وكأنها أدركت ذلك هي أيضاً. لانت فرانسيسكا، ثم أشارت إلى المائدة نصف الجاهزة وقالت: «أيمكنني أن أساعدك؟».

مضت لحظة قصيرة جداً قبل أن تقبل الملكة السابقة هذا العرض بلطف بالغ. قد لا يكون الرجلان لاحظا ذلك، كما ظنت فرانسيسكا. لكن مضيفتها حرصت على أن تلاحظ فرانسيسكا هذا.

قالت الملكة السابقة وهي تشير إلى زوجها وضيفه بالذهاب إلى غرفة الجلوس: «هذا لطف بالغ منك. يمكننا الآن أن نتسلى بالحديث بحرية، امرأة لامرأة».

نتسلى بالحديث؟ وساور الشك فرانسيسكا.

سارت أمامها الملكة السابقة إلى المطبخ وكأنها داخلة إلى قاعة وخلفها وصيفتها، وازداد هبوط قلب فرانسيسكا. سوّت نظاراتها على عينيها متحدية، حامدة الله على أنها استطاعت شراء نظارات جديدة.

حمدت الله الذي أنقذها من تأنيب الملكة، عندما قالت هذه: «فهمت أنك «مهتمة» بحفيدي».

وجعلت هذا يبدو شائناً بعض الشيء.

احمر وجه فرانسيسكا وقالت: «من ناحية العمل تماماً».

تصلب جسم الملكة السابقة: «أنت صريحة».

أجابت فرانسيسكا: «من السهل عليّ كثيراً أن أقول ما أريده مقدماً».

وتساءلت عما قالته لتبدو هذه الوطواط العجوز على هذا الشكل.

وتابعت تقول: «هذا يُبعد سوء التفاهم».

قالت الملكة السابقة وقد أصبح فمها كالفخ: «تماماً. هذا ينطبق جداً على مفاهيم القرن الواحد والعشرين. لا تظاهر، لا تهذيب ولا سمح الله (لا غرام)».

حدقت فرانسيسكا إليها قائلة: «غرام؟».

فقالت الملكة: «لكنني واثقة من أن الحق معك. انتم الشباب عموماً كذلك، إذا كان سبب اهتمامك الوحيد به هو جعله شريكاً في أهداف عملية فقط، فمن الصواب إذن أن تقولي ذلك».

لوت شفتيها. لم يبد عليها أنها تظن أن كل ما تقوله فرانسيسكا أو تفكر فيه هو صواب.

أخذت غرفة الطعام المكتظة بالأثاث تهتز أمام عيني فرانسيسكا، وضعت يدها على الجدار تثبّت نفسها. ثم قالت بصوت أجش: «شريك؟».

أجابت الملكة السابقة: «ما دمنا نتجنب سوء التفاهم، فلن أخفي عليك بأنني لا أوافق زوجي على ذلك».

وألقت ببعض الشوك والملاعق على المائدة المصقولة بحدة، وفكرت فرانسيسكا في أن هذا كابوس حقاً. فتنحنحت قائلة: «أية شراكة؟».

وكانت مضيفتها تنظم أدوات المائدة مكانها بغضب فقالت: «قد يكون كل هذا شيئاً عصرياً جداً وعقلانياً. ولكن علينا أن نتبع أيضاً بعض العادات القديمة من الحنان والمودة. حتى ولو لم تؤمنا بالحب، عليكما، على الأقل، أن تشعرا ببعض المودة والاحترام نحو بعضكما بعضاً. أنا لا أريد أن تصيب حفيدي كارثة أخرى. . .».

وسكتت فجأة، ثم سألتها باستياء: «إلى اين تذهبين؟».

أجابت فرانسيسكا عابسة: «أريد أن أتحدث إلى أبي».

لا عجب في أن أباها بدا متضايقاً في التاكسي.

نسيت حذرها من كعبها العالي، فقد كانت ملهوفة إلى اتخاذ موقف من أبيها. وهتفت: «أبي. . .» وإذا بجرس الباب يرن. وكانت قد أصبحت بجانبه، ودون وعي منها فتحت الباب وهي تقول: «هالو. الأسرة في. . .».

سكتت وهي تطرف بعينيها.

فأول ما فكرت فيه أن الصور لم تظهر نصف الأمر. وما افتقدته الصورة هو النظرات الثاقبة التي كانت تجتاحها حتى العظم.

أمسكت بالباب تستند إليه. في مكان ما في ذهنها، كان هناك احساس غامض بالإلفة التامة، وكأنها عرفت الأمير كونراد منذ الأزل.

هاتان العينان الثابتتان، بتجردهما الهادىء وتلك اللمحة الضاحكة فيهما رائعتان... إنها تعرف أيضاً كيف تبدوان، ولكنها لم تتوقع قط أن عليها أن تطيق نظرة التسلية تلك من مسافة ستة إنشات.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ورفعت بصرها، ولم تستطع أن تفكر في شيء تقوله.

***

وقف كونراد جامداً.

فأول ما خطر في ذهنه فكرة غير منطقية وهي أن فيليكس قد قرأ أفكاره! ولكن، لا. كان أول ما خطر له هو فكرة أبعد عن المنطق، فكرة بدائية للغاية، وهي أن يحمل هذه المرأة معه ويهرب بعيداً.

كان متلهفاً إلى رؤيتها. لقد أدرك مبلغ ذلك وهو يراها هنا، وكان ذلك يشغل باله منذ أيام.

ففي كل وقت كان يرفع فيه بصره عن عمله، وفي كل مرة يقف في الصف في السوبر ماركت أو ينتظر أن يغلي إبريق الشاي... كان خيالها يتسلل إليه من الظلال مرة أخرى، ودوماً بنفس السؤال: هل أنا فتاة بريئة واسعة العينين، ام عجوز انانية مشاكسة؟

ولكن ما كان يجعل فكه يتوتر إلى حد يؤلم أسنانه: هل أنت مفتون بي بحيث لا تهتم؟.

الورقة المدون عليها رقم التليفون وعنوان البريد التي أحضرتها له السكرتيرة في دار نشر «غفرون وبليك» كادت تبلى لكثرة الاستعمال، لكثرة ماكان يخرجها من جيبه ثم يعيدها إليها.

حتى الآن بقي متماسكاً أمام إغراء ابنة بيتر هيلير. لكنه كان يعلم أن ذلك شيء فاشل.

في الأيام التي تلت تلك الحفلة السخيفة، لم يستطع أن يعد المرات التي نظر فيها إلى جدول مواعيده وهو يتساءل كم من الوقت تستغرق الرحلة إلى تلك المكتبة عند خزانات الغاز. ثم يقرر أن ذلك ليس استغلالاً جيداً لوقته ثم يهنيء نفسه لهذا القرار العقلاني.

كان في أعماقه يراهن على طول المدة التي سيثبت فيها على مبدئه ويبقى بعيداً عن ابنة بيتر هيلير.. حتى هذا النهار كان قد وضع خطة للذهاب إلى المكتبة بعد الصف، ثم، بعد أن طلب منه فليكس الحضور إلى الغداء، أجّل ذلك إلى العصر.

والآن، ها هي ذي... هنا!

ولكن كيف عرف فيليكس ذلك بحق الله؟ وكيف كتم الأمر؟ أمضى الصباح، وهو يقنع كونراد بأن يتحدث إلى ذلك المحتال عن منحة منه لفقراء الجالية المونتاسورية، ولكنه لم يأت على ذكر فرانسيسكا قط. لقد فكر فيها كونراد، طبعاً. فكر فيها؟ يا الله! كان عليه أن يكافح موجة الشوق التي يشعر بها تجاهه. موجة الشوق التي تشبه مد البحر..

ففي اللحظة التي ذكر فيليكس فيها اسم بيتر هيلير، أصبح كونراد وجهاً لوجه مع غموض ابنته. وعادت تحتل احلامه، وأصبح لا يعرف، ما إذا كانت ساحرة أم أميرة من عالم الخيال. أم أن تلك مشكلته هو وليس مشكلتها؟

لكن فيليكس لم يذكر حتى اسمها، ولم يذكر أيضاً أنها مدعوة إلى ذلك الغداء، وكان ذلك منتهى التفوق في المناورة حتى بالنسبة إلى مستوى فيليكس، ما الذي يهدف إليه يا ترى؟

حسناً، إذا كان يظن أنّ كونراد سيذعن ويفعل ما يريده بيتر هيلير لأنه انبهر بابنته، فإنه مخطىء كثيراً. لم يرَ كونراد اليوم من تينك العينين البريئتين الغامضتين أية لمحة.. بل بدتا مركزتين حادتين وراء نظارات مؤطرة حديثة

الطراز، وكانت أطول بإنشين تقريباً، وأكثر أناقة بعدة سنوات ضوئية.

شعر بغضب متعذر تفسيره وهو يتأملها، كان ثوبها التبني، المذهب من تفصيل خبير، وكان شعرها ممشطاً بنعومة شعر راقصة باليه، وشم رائحة عطر هو اكثر ندرة وثمناً من أن يعرف نوعه.

لا شك في أنها ليست أبداً تلك الفتاة البريئة صاحبة المكتبة، فهذه امرأة عاملة واضحة العينين، كانت بالضبط المرأة التي كان يتوقعها ابنة لبيتر هيلير، بالغة الأناقة والحنكة، مستقلة بحياتها تماماً.

لكنه مازال يريدها.

وسألها فجأة، رغم غضبه من نفسه: «ماذا تفعلين هنا؟».

* * *

لم تظهر أي من الصورتين جوهر هذا الرجل، ولا عرض كتفيه، ولا رشاقته أو طاقته. لكنه كان ينظر إليها وكأنه يكرهها.

تراجعت خطوة إلى الخلف بشكل لا إرادي وكأنها قريبة من النار أكثر مما يجب، وفكرت بارتباك في ما تراها فعلت.

لكنها قالت بحيوية: «أنا مدعوة إلى الغداء. وقد فتحت الباب لأنني كنت مارة بجانبه، آسفة إذا توقعت أن ترى رئيس الخدم».

وأخذا يحملقان في بعضهما بعضاً. وعاد إلى نفسه أولاً فقال: «لا بالطبع، لم يستطع جداي قط أن يتحملا نفقات رئيس خدم، لأنهما ليسا من الملوك الذين يهربون مع جواهر التاج».

ثم بدأ يقدم نفسه: «كونراد دوميتيو».

أجابت قائلة: «وأنا فرانسيسكا هيلير».

ـ أعلم هذا.

إنه يعلم. يعلم؟ هل ذلك يعني أنه يعرف كل شيء عن شراكة العمل غير العاطفية؟ وهل وافق على ذلك؟

هل هي الوحيدة التي لم يعبأ أحد بإبلاغها ذلك؟ صعقتها هذه الفكرة بالفعل. وقالت بلهجة محاربة: «آه، أحقاً؟».

دخل وأغلق الباب خلفه، ثم سألها: «أين يجلس الباقون في غرفة الجلوس؟».

كان مهذباً الآن، لكن عينيه كانتا حذرتين ويقظتين.. ربما كان مثلها خارقاً في الظلام. وتبدّد غضبها ليحل مكانه الشك.

سألته فجأة: «هل تقابلنا من قبل؟».

ضاقت عيناه ونظر إليها صامتاً وقد أخذ جسده يتجمد، ثم قال بهدوء: «لا أدري. أخبريني، هل تقابلنا من قبل؟».

كانت حتماً ستتذكر هاتين العينين الثقيلتي الجفنين بتكاسلهما الخداع وعنفهما المستتر. وكانت حتماً ستتذكر كل تلك الطاقة لو سبق لهما التعارف.

قالت: «آسفة. لا أتذكر».

أومأ بخفة وكأنه كان يتوقع هذا. وقال بنفس الصوت الهادىء: «إذن، نحن لم نتقابل».

ولكن لماذا لم تصدقه؟ وكادت تسأله عن ذلك. لكن أباها والملك السابق خرجا في تلك اللحظة إلى الردهة، ثم كانت الأفضلية لأمور أهم.

قالت وهي تعترض طريق أبيها وتحدّق إليه: «أبي، هل لي أن أحدثك لحظة على انفراد؟».

تململ، لكن هذا الطلب ناسب الملك السابق تماماً فقال: «طبعاً طبعاً، استعملا مكتبي، ثم عودا وتناولا شراباً قبل الغداء».

وأشار إلى غرفة صغيرة معتمة مزدحمة بالأثاث أكثر من سائر غرف الشقة.

نخست فرانسيسكا أباها بصدره بإصبعها، وهي تقول: «ما الذي كنت تصنعه بالضبط؟».

جعله الحذر يتراجع إلى خلف مجسم لكرة أرضية: «والآن، يا فرانسيسكا. لقد وعدتني بأن تحسني التصرف».

فقالت بغضب: «كان هذا قبل أن أعلم أنك كنت تمثل دور نابوليون في

ترتيب أمر زواج مصلحة، من تراني؟ ماري أنطوانيت؟».

فقال: «أنت التي أردت أن تقابلي الأمير كونراد».

فقالت: «أقابله، نعم. ولكن هذا الزواج! إنه غير حقيقي!».

فلم يقل شيئاً، وعادت تقول: «كان هذا يحدث في القرن التاسع عشر فكيف في القرن الواحد والعشرين؟».

ـ هل تخرجين مع صديق حالياً؟

ـ أنت تعلم أن هذا لا يحدث، فقد تخلصت أنت للتو من الرجل الوحيد في حياتي.

قال بفروغ صبر: «لقد ساعدتك فقط على رؤية الحقيقة».

لم تستطع أن تنكر ذلك. ولكن لم يكن عليها أن تجيبه، فأطبقت فمها ولم تقل شيئاً.

قال أبوها: «لا أفهم النساء، لقد كان الرجل مخادعاً فانسيه».

فحملقت فيه قائلة: «أنا أحاول هذا».

ـ هذا جميل، هذا اليوم إذن سيساعدك على السير في طريق النسيان.

ضاقت عيناها، بينما قال بسرعة: «عليك أن تكوني عملية. فترك شاب ليس نهاية العالم، عليك فقط...».

فقاطعته: «سأترك حفلة الغداء المقيتة هذه الآن».

قالت هذا بشكل خطر، فنظر إليها بإمعان. وقرر أنها تعني ذلك فعلاً.. فجرب طريقة أخرى: «لديّ خبرة تفوق خبرتك.. صدقيني، يجب ألا تشعري بسبب خبرة سيئة بالمرارة أو بالخوف من تكرار التجربة، فهذا لا يعني أنّ كل شخص لا يستحق الثقة».

نظرت إليه حانقة. ما أجدره بأن يأخذ بعض النصائح في الإحسان. وقالت ساخرة: «كمّ هذا مؤثر، ربما كان كلامك أكثر إقناعاً لو تجاوز طردك لباري مدة أسبوع».

لم يتغيّر مظهره الأبوي وهو يقول: «أنا أعرفك حساسة أكثر مما ينبغي».

ـ لست حساسة (أكثر مما ينبغي).

وكانت تهتز غضباً فكادت تقع من فوق كعبي حذائيها، فاندفع إليها أبوها يساعدها على استعادة توازنها، ودهشت وهي تراه يمسك بيدها، ويقول برزانة: «أنت امتنعت عن الخروج مع الشبان منذ وقت طويل بحيث كان باري أول صديق استمر... حسناً، لن نقول المدة. ولم يكن يستحق ذلك. وكل هذا ذنبي أنا».

ـ ليس ذنبك طبعاً، فأنا فوق الحادية والعشرين. فإذا أخطأت فأنا المسؤولة.

تنهد بعمق قائلاً: «ولكن صيادو الثروات هؤلاء».

وأطلق شتيمة باللغة المونتاسورية: «ما كانوا ليلاحقونك لولا أموالي».

قالت مداعبة: «ما كان لك أن تكون ناجحاً إلى هذا الحد».

هز رأسه: «كنت أظنني على صواب. كنت أتعب نفسي في العمل كي أعيل أسرتي. فإلى أين أوصلني هذا؟ إلى الطلاق وابنة لا يمكنها أن تجعل حياتها الخاصة ملكاً لها».

فقالت مجفلة: «ليس الأمر بهذا السوء».

ـ بل هو كذلك. لقد حدثتني أمك بكل شيء عنه.

نظرت بعيداً شاعرة فجأة بالضيق: «حسناً، أنت تعرف أمي... عندما لم يخطبني أحد وأنا في الثامنة عشرة، ظنت أنني أصبحت عانساً».

ـ لو كانت لديك مهنة تحبينها لما اهتمت لذلك، لكنها قالت إنك قبل أن يكون لديك المكتبة تلك مع صديقتك، أخذت تفقدين أعمالك بسبب المخبرين الصحافيين.

ـ حسناً، هذا صحيح.

ـ كم عملاً أنجزت؟

أخذت تعد على أصابعها: «كان استمراري في كل عمل بمعدل ثمانية أسابيع».

فقال أبوها وقد فوجيء: «هذا فظيع».

- آه، لا أدري، تعلمت قليلاً من كل شيء ، وكان هذا أفضل من أن أعيش طوال الوقت فتاة غنية.

- لو كنا أغنياء طوال حياتك، لكنت علمتك كيف تتصرفين بحياتك تلك. ولكنت سعيدة الآن، ولا تهتمين بالعمل، وكنت ستعرفين كيف تتعاملين مع صيادي الثروات وكاتبي مقالات الإشاعات.

فقالت: «أتراهن؟».

تجاهل ذلك وهو يتابع: «ولو كنت فتاة غير غنية الآن، لما تعرضت لكل تلك الصعوبات».

- لو كنت غير غنية لما كانت لي شقة جميلة على شاطىء النهر وملابس من باريس. لا تدع الخيال يجرفك.

نظر إليها أبوها بأسى: «لكنك لا تريدين ملابس من باريس. أنت تريدين زوجاً وأولاداً».

ذعرت وهي تشعر بالغثيان، حتى أمها لم تكن صريحة معها إلى حد الفظاظة: «أبي...».

تابع يقول: «لقد أفسدت عليك ذلك، الرجال الطيبون لا يقتربون منك لأنك ابنتي».

فقالت بحدة: «ومن قال لك إن الرجال الطيبين لا يقتربون مني؟ إنها أمي أيضاً، أليس كذلك؟».

فلم ينكر ذلك. فقالت: «إسمع يا أبي، لا بأس! السنتان الماضيتان كانتا حافلتين قليلاً. لكنني الآن تشاركت مع جاز، وأنا بأحسن حال، كانت المكتبة مهتزة قليلاً في البداية. لكنني الآن بدأت بإنشاء (نادي الكتاب) في الإنترنيت، ومحاضرات للمؤلفين، والنتيجة ممتازة، إنها حياة عظيمة. فقد وجدت شيئاً أحسنه. سأمشي في أثرك وأصبح امرأة عاملة».

ساد صمت لحظة، قال أبوها بعده: «لا تكذبي عليّ فأنت لست سعيدة».

كانت أصدق من أن تنكر ذلك فقالت: «لا أحد يحصل على كل ما

يريده، وصدقني، الخطبة الفورية لا تفعل شيئاً سوى جعل الأمور أسوأ، حتى ولو كان أنسب شخص في العالم».

عاد يمسك بيدها: «فرانسيسكا. دعيني أفعل هذا لأجلك. أمك تقول...».

هتفت: «إذا قالت لك أمي إنني أريدك أن تشتري لي زوجاً، فهي قد جنّت».

وبدا أنه تألم، بل صعق، فوخزها ضميرها: «آه، رباه! لم أقصد هذا».

أكملت فرانسيسكا بضيق: «آه، لا بأس لن أخرج قبل الغداء، لكنني لن أتابع عملكم الجنوني أكثر من ذلك. أفهمت؟».

قال بيتر هيلير: «نعم، فهمت. شكراً لك».

وعادا إلى قاعة الجلوس.

توقف الملك السابق عن الحديث فجأة، ونظر هو وحفيده حولهما، كان العناد مرتسماً على وجه كونراد، أما الملك السابق فبدا قلقاً: «كونراد، دعني أقدمكما إلى بعضكما البعض بشكل صحيح، بيتر هيلير الذي تكرم بالتبرع بمبلغ وافر لتمويل مستشفيات المونتاسوريين».

أومأ الرجلان بالتحية لبعضهما البعض بحذر ثم قال كونراد بابتسامة كلمعان الخنجر: «حسناً، لا تنس أن علينا أن نتحدث بهذا الشأن، يا فيليكس».

وقال الجد: «وابنته فرانسيسكا».

قال كونراد وكأنه يتذوق الاسم: «فرانسيسكا».

يبدو أنه قرر شيئاً، إذ اختفت ابتسامته الشبيهة بالخنجر ومعها كل دلائل العداء. وكانت النظرة التي ألقاها عليها... كانت... تفيض بالعاطفة. منحها ابتسامة دافئة في اعماق عينيها. وقال الملك السابق وقد بدا عليه القلق: «وهذا حفيدي ولي العهد الأمير كونراد».

أخذت فرانسيسكا تفكر إن كان يعرف شيئاً، فربما هو مثلها، أحضروه إلى هنا دون أن يعلم شيئاً، وهي ترجح أن يكون الملك الضفدع قد خبّأ عنه

الأمر ولكن ماذا لو قبل الزواج المدبّر منذ البداية؟

حدقت إليه ولكن العينين الباسمتين بقيتا غير مقروءتين. أتراه يظن أنها وأباها هنا للحديث عن تبرعه لتمويل المستشفيات؟ وكادت تسأله. كانت على وشك أن تسأله، ولكن...

حسناً، لقد دنا منها، وإذا بكل تفكير في عقلها يتوقف. وبدا وكأن الأمير كونراد يناقش الأمر في ذهنه. وفي الواقع، بدا لها وكأنه على وشك أن ينحني بشكل ملكي ويقبل أطراف أصابعها.

لم تعرف ما إذا كان يفكر في أن ذلك سيجعلها تقبل الزواج به، أم يجعلها تتجنب ذلك نهائياً، لم تهتم بذلك.

حملقت فيه متحدية: «حسناً، أترانا تقابلنا من قبل؟».

منحها أكثر ابتساماته فتنة، وقال: «يا لحماقتي. لا، بالتأكيد وكيف يمكنني أن أنسى؟ سامحيني».

فقالت بغلظة دون أن تتأثر: «لا بأس».

وابتعدت عنه، وساد صمت حاد يكاد المرء يقرأ فيه أفكار الآخرين. وبدا الضيق على فيليكس، والتحدي الواضح على بيتر هيلر، أما هي نفسها فبدت في مرآة الردهة المواجهة كثيبة كتلميذة مدرسة.

بدا على كونراد وحده التسلية، فقال ضاحكاً: «ما رأيكم في شراب تقليدي؟».

سألت الملكة السابقة بيتر هيلر: «هل تشرب مشروباً وطنياً في بيتك، يا سيد هيلر؟».

فأجاب: «لا. منذ تركت مونتاسورو لم أفكر في أخذ أي من الوصفات القديمة معي. كنت في الرابعة عشرة فقط من عمري، ولم اكن أفكر في العادات التراثية، بل في سيارة «الفيراري» التي ستكون لي ذات يوم».

وضحك، وضحك الآخرون أيضاً... بدت هذه الضحكات فارغة في أذني فرانسيسكا.

وسأله كونراد ببراءة مصطنعة: «وكم فيراري لديك الآن؟».

هز بيتر هيلر رأسه وأجاب بلهجة واقعية: «عندما أصبحت غنياً بما يكفي لأشتري واحدة، كل ما كنت أريده من السيارة أن تكون خالية من الازدحام بينما شخص آخر يقودها، أنا أركب هذه الأيام في المقعد الخلفي فقط وأتحدث في التليفون».

فقال كونراد متفجعاً: «آه، إنها ضريبة الثراء».

نظرت إليه فرانسيسكا بغضب، لكن كونراد لم يرها لانشغاله بتحضير الشراب لكن جده خفّ إلى تصحيح الموقف، قائلاً: «إذن فقد استغرق منك بناء امبراطوريتك هذه وقتاً؟».

أومأ بيتر الذي يشعر دوماً بالراحة وهو يتحدث عن الأعمال. وقال بأسف: «مضت مدة طويلة قبل أن أبني هذه الإمبراطورية. وعشت أنا في كل أنحاء العالم، أتاجر بشيء من هذا وشيء من ذلك، وأتعلم طوال الوقت، طبعاً لم أنظر إلى الخلف قط، ولكن كان ذلك فقط... ماذا تقولين يا فرانسيسكا... منذ ست سنوات؟».

فقالت فرانسيسكا بهدوء: «بل سبع سنوات ونصف».

قال أبوها موزعاً بين الضيق والتسلية: «آه، يا لدقتك هذه».

وقال للآخرين: «كان يجب عليها أن تعمل بالمحاسبة فهي دقيقة جداً».

هزت فرانسيسكا كتفيها وقالت: «لديّ ذاكرة قوية».

لديها طبعاً سبب جيد لتتذكر التاريخ الذي ذهب فيه أبوها حول العالم، فقد كانت في السادسة عشرة تقريباً، تجيد اللغات، وتريد أن تكون معلّمة، وإذا بها فجأة لا تصلح لشيء. فهي لا تمكث في أي مدرسة أكثر من أسابيع معدودة.

لم تحاول فرانسيسكا أن تعلّق على كل هذا. فقد كانت واعية أكثر من اللازم إلى الأمير كونراد، لو لم يكن جنوناً، لقالت...

ولكنه جنون طبعاً. المشكلة هي أنها لم تكن تستطيع أن تخرج رجل الشرفة ذاك من ذهنها.

نعم كان الأمير كونراد في حفلة الناشر تلك، ولكن رجل الشرفة كان

مختلفاً عنه وعندما سألته إن كان يعرف الأمير كونراد نفى ذلك. حسناً، لقد ظنت أنه نفى ذلك، وقطبت جبينها محاولة أن تتذكر.

وظهر كوب أمامها فجأة، فرفعت بصرها مجفلة.

فقال كونراد ووجهه يكسو بلطف ماكر: «جربي عصير التفاح هذا».

أخذت ترشف الشراب بحذر بالغ. وسرها أن تركز على مذاق غريب، وسألته: «هل هو عسل حقاً؟ لا يبدو بهذا المذاق».

ورشفت مرة أخرى. لم يكن مذاقه يشبه السكر كما توقعت. أدهشها أن يبدو كونراد مسروراً، مسروراً حقاً هذه المرة قال لها: «إنه ممزوج بروح الورد، هل أعجبك؟».

عادت فرانسيسكا إلى رشفه، وقالت: «لا أدري ما هي روح الأشياء؟».

فأجاب: «إنه تقطير الورود، وهو نادر جداً، وثمين للغاية».

وساد صمت مفعم بالمشاعر.

نظر إليها كونراد، وكانت متأكدة من أنه كان يستمتع بذلك تماماً.

وكأنه كان يعلم ماذا يحدث بينما هي لا تعلم.

ثم تذكرت فتى الشرفة. آه، رباه. فتى الشرفة ذاك قد ترك تأثيره حقاً فيها فهي تراه في كل مكان!

ابتسم كونراد ببطء. وتساءلت إن كان ذلك لأنه يظن أنها تريده أن يخطبها، ام لأنه واثق من أنها لا تريد! وفكرت في أن هذا الغداء لن ينتهي، ولكنه، على الأقل، لا يمكن أن يكون اسوأ مما هو الآن، ولكنها كانت مخطئة في هذا.

حسناً، لم تكن مخطئة كلياً، إذ كان الطعام لذيذاً، وعندما جلسوا، دب شيء من الحيوية في الحديث. لم تكن قد سمعت قط من قبل أباها وهو يتحدث عن وطنه. وأثار هذا فضولها.

لم يتدخل ولي العهد الأمير كثيراً في الحديث، طبعاً، والواقع أن الأمير بدا معظم الوقت وكأنه يتفرج على مهزلة. ولو أبقت فرانسيسكا نظرها على

مضيفيها أو على غطاء المائدة، لما كان عليها أن تقاوم ذلك الدافع الذي كان يحثها أن تضربه، ولما استحال الغداء إلى ما يقرب من الألم.

مساهمة فرانسيسكا في الحديث تطورت من مجرد كلمات إلى الصمت التام، وعبر المائدة كان ولي العهد كونراد يتألق بظرف وبراعة معطياً إياها سبباً آخر لأن تكرهه.

وكانت تدعو الله أن يوفقها إلى الخروج دون تحقير لنفسها، وكادت تفلح في ذلك. كادت...

ثم، إذا بها تسمعه عرضاً...

كانت أمها تقول دوماً إن مسترقي السمع لا يسمعون أبداً عن أنفسهم ما يرضيهم، لكن فرانسيسكا لم تقصد قط أن تسترق السمع. فهذا آخر ما تريده في العالم، ولكن فيما كانت خارجة من الحمام وجدت نفسها تدخل من الباب الخطأ الذي ينفذ إلى المطبخ.

كان هناك شخصان يتحدثان، رجل صوته غامض مألوف كاد يجعلها تستدير حول الزاوية لترى من هو.

ثم أدركت أنهما كانا يتجادلان، ومن لهجتهما أدركت، وهي الحساسة بالنسبة للهجات، بأن ذلك كان جدالاً حتى قبل أن تسمع الكلمات، حتى قبل أن تدرك من كان يتحدث.

استدارت بارتباك لكي تهرب قبل أن يشعرا بأن هناك من يسترق السمع، وإذا بجملة واحدة توقفها.

كانت الجملة هي (كانت ضيفتي وكنت أنت فظاً) وهكذا عرفت شخصية المتكلمة فهي الملكة السابقة انجليكا، كان الاستياء والغضب في صوتها وهي تقول: (أنت لم تترك لها فرصة).

ـ فرصة؟ وهل تظنين أنني أجري لها مقابلة لوظيفة هنا؟

ـ كن عاقلاً، يا كونراد.

إذن ذاك كان صاحب الصوت الآخر، ودهشت فرانسيسكا التي لم تلاحظ مبلغ عمق صوته عندما كان يسخر منها.

ومرة أخرى، تحركت ذاكرتها، إنها تعرف ذلك الصوت بكل تأكيد. وهي لم تربطه بولي العهد الساخر الأمير كونراد بل بشخص آخر.. بشخص تعتبره رجلاً بكل معنى الكلمة وليس مشعوذاً ساخراً كالذي كان يغيظها مداعباً طوال حفلة الغداء الفظيعة هذه.

ترددت فرانسيسكا ويدها على مقبض الباب، كانت تعلم أن من الخطأ أن تستمع دون أن تعلمهم بوجودها، لكن صوته كان مختلفاً بشكل فاجأها.

وقال بجفاء: «أنا عاقل يا جدتي، لقد أمضيت حياتي كلها عاقلاً، أقوم بعملي، أدفع ضرائبي، وأساند جاليتي».

وسمعت خبطة يد على المنضدة وصوت يردد: «أنا لا أريد أن أكون كبش فداء لأحد».

ـ لكن جدك يظن أن...

فقال ببرودة: «جدي يظن نفسه نابوليون. حسناً، لن أجعله يعقد اتحاداً سياسياً على حساب حياتي الخاصة».

جمدت يد فرانسيسكا على قبضة الباب، ورأت نفسها ترتجف. حسناً، هذا هو جواب اللغز، عرف كونراد ما هي الخطة، وكان جالساً طوال الغداء يحاول تجنب ذلك، ولا بد أنه ظن أنها موافقة على ذلك وأنها جاءت إلى هنا خصيصاً لكي تجتذبه!

استولى عليها فجأة الشحوب والحرارة والغضب والإحراج.. لم تكن تدري أي شعور هو الأقوى.

بدت الملكة السابقة أكثر إنسانية وكانت تقول: «إنه يحاول أن يقوم بما يعتقده الأفضل».

رقّ الصوت المخملي العميق: «أعرف هذا يا جدتي، لكنه لا يستطيع أن يجعل كل شخص يرقص على أنغامه. وهذه الفكرة عن الزواج هي... غير واقعية».

فقالت الجدة وكأنها على وشك البكاء: «آه، رباه، أما زالت سيلفيا..؟».

ارتفعت خبطة اخرى عنيفة على المائدة اهتز لها كل ما يعلوها من اكواب وأوان: «آه... لا علاقة لهذا بما إذا كنت سأتزوج أم لا».

لم يعد الصوت العميق ناعماً الآن، كان فولاذيا ناطقاً بالسخط: «فلنوضح ذلك الآن. أنا لن أتزوج أبداً فرانسيسكا هيلير، أبداً. أنا فقير جداً. وهي معدومة الجمال تماماً وبالغة الحساسية وقارصة اللسان جداً. هل فهمت؟».

***

٤ ـ الانتقام

رفع كونراد رأسه بحدة: «ما هذه الضجة؟».

هناك شخص أغلق الباب بلطف لتوّه. شخص لم يشأ أن يلفت الانتباه إلى الباب الذي انفتح. ولكن أي باب؟

ثم تذكر أن مطبخ أمه كان بشكل حرف (L)! ولهذا يمكن أن يدخل شخص ما من الطرف الآخر من المطبخ دون أن يراه أحد... شخص يمكن أن يكون قد وقف هناك مدة طويلة.. شخص سمع كل كلمة!

سألته جدته وهي ترى التغير في وجهه: «أي ضجة؟».

فأجاب: «هناك شخص كان يستمع...».

سار إلى الطرف الآخر من المطبخ بخطوات واسعة، كان خالياً. وهذا طبيعي فما كان ليسمع الباب يُغلق بذلك اللطف لو أن المستمع ما يزال هناك، وذلك الشخص لم يكن يريد أن يلحظه أحد.

ولم يكن على كونراد أن يفكر كثيراً لكي يخمن من هو، وتأوه. وقالت جدته وهي تتبعه بارتباك: «ليس هنا أحد».

ـ بالطبع لم تعد موجودة. لقد سمعت كل شيء ثم هربت.

سألته: «من تعني؟».

ـ حسناً، أراهن أنها المرأة التي قلت عنها للتو بأنها قارصة اللسان معدومة الجمال.

غطت جدته وجهها بذعر: «ولكن ماذا كانت تفعل هنا؟».

هز كتفيه، فقالت جدته: «ربما عادت مارتا مبكرة».

ـ آسف يا جدتي. ليس في المكان موسيقى عالية، ومارتا ليست هنا.

وأنت تعرفين هذا كما أعرفه. لا. لا بد أنها فرانسيسكا هيلير.

قالت جدته عابسة: «وماذا بإمكاننا أن نفعل؟ كان أبوك يعتمد حقاً على بِنز هيلير».

شخر كونراد ضاحكاً: «يا لقلبك الحنون يا جدتي! لقد أهنت المرأة للتو بشكل شامل، وكل ما يهمك هو أبي؟».

هزت جدته كتفيها: «ما كان لها أن تنصت إلى حديث خاص».

فقال ببطء: «أنت لا تحبينها، أليس كذلك؟».

فقالت: «ولا أنت تحبها أيضاً، لم يسبق لي قط أن سمعتك تنعت امرأة بأنها معدومة الجمال قارصة اللسان».

فقال: «لقد جاءت أثناء شجار عنيف. ومع ذلك ما كان لي أن أفقد أعصابي».

أخذت جدته تفكر: «نعم. هذا صحيح».

لكن افكار كونراد كانت في ناحية أخرى: «ما كان لي أبداً أن أقول ذلك، وعليّ أن أعتذر».

كان منزعجاً من نفسه كثيراً فقالت له جدته: «لا يمكنك ذلك، فأنت لم تقل هذا مباشرة، فقد كانت تتنصت، وعلى كل حال لا يمكنك أن تعتذر إذ لا يمكنك أن تعتذر لتفكيرك في شيء، خصوصاً إذا كان ذلك صحيحاً».

رفع جفنيه الثقيلين: «صحيحاً؟».

أجابت: «حسناً، هي غير جميلة».

ـ أتظنين ذلك؟

فأجابت: «طبعاً، عليها أن تهتم بمظهرها. ثم تلك النظارات الفظيعة! وذلك الشعر! لا أحد يظن أن لديها كل ذلك المال ولا تنفق منه على حلاقي الشعر!».

فقال كونراد بالرغم عنه: «أظن ذلك».

فقالت متلذذة: «كما إنها قصيرة وممتلئة. لا بد أنها تعوّدت على أن يقول عنها الناس، إنها معدومة الجمال».

قال: «ولكن ليس أنا».

قالت بدهاء: «لا تهتم لذلك، لأن قولك هذا لا يمكن أن يصدمها. فأنا لا أظنها مغرمة بك. حتى قبل كلامك الفارغ ذاك عنها».

لم يستطع أن يتحدى هذا الكلام حقاً، رغم أنه ضايقه في أعماقه.

سار في أنحاء المطبخ متضايقاً وهو يقول: «تباً لذلك، لم أقصد أن اجرح مشاعر تلك المرأة».

فقالت الجدة: «هذا يجعل الأمر أسوأ».

ضاقت عيناه: «يبدو وكأنك سررت لذلك».

ضحكت: «حسناً، كنت واثقاً من أنك مسيطر دوماً على كل شيء. لذا جميل أن نراك تخطىء أحياناً مثلنا».

فقال ساخراً: «بدأ الأمر يصبح عادة مع فرانسيسكا هيلير».

جفلت الجدة: «ماذا؟ متى؟ وكيف؟».

تجاهل كونراد أسئلتها. وضرب قبضته في راحة يده الأخرى بقنوط: «عليّ أن أفعل شيئاً».

فقالت بسرور خبيث: «عليك أن تتظاهر بأنك لم تقل هذا. وسيكون عليها أن تتظاهر بأنها لم تسمعه فهذا هو الأنسب لكما معاً».

ـ هذا عظيم. سيجعل هذه الحفلة تهتز حقاً.

قالت: «سيذهبان بعد قليل، وبعد ذلك لا حاجة بك لرؤيتها مرة أخرى».

لم يجد كونراد في ذلك أي عزاء، وازداد ضيقه ولم يحاول أن يخفي ذلك. وكبحت جدته ابتسامة وتركته يحمل صينية القهوة إلى غرفة الجلوس.

كانت على حق. لأن الزائرين لم يطيلا مكوثهما، وفي الواقع أفرغت فرانسيسكا قهوتها في حلقها ووقفت بحركة واحدة، وعندما رأى أبوها ذلك انبأه قلبه بالمتاعب. قالت بحزم: «علينا أن نخرج».

نظر إلى قهوته البالغة السخونة، ثم قال محتجاً: «من المؤكد أن لدينا وقتاً كافياً».

لأجل ماذا؟ فكرت فرانسيسكا بذلك وهي على شفا ثورة عصبية لكنها قالت كاذبة: «لقد وعدت جاز بأنني سأعود إلى المكتبة بعد الظهر».

ـ لكنني أخبرتك بأننا سنمضي النهار بطوله خارجاً.

ـ السبت هو يوم عمل كثير عندنا. وأنا واثقة من أنكم ستعذروننا.

ووجهت جملتها الأخيرة إلى مضيفتهما بابتسامة ضعيفة.

لم تكن الملكة السابقة قد عملت في مكتبة طوال حياتها، لكنها قالت بحرارة: «طبعاً يا عزيزتي».

وكانت تعني ذلك، أما فرانسيسكا فأرادت أن تخرج من هنا بشكل مناسب، رغم أنها كانت تهتز انفعالاً.

أن تقول لها أمها بأنها أكثر بلادة وجفاء من أن تجذب رجلاً لديه امرأة أخرى، هو شيء، وأن تسمع رجلاً غريباً يقول إنها عديمة الجمال قارصة اللسان، شيء آخر.

حسناً، سنريه كيف يكون قرص اللسان.

عندما حيّاها مودعاً قبل خروجها، لم تردّ التحية، وبدت عليه المفاجأة، ثم بدا رزيناً فجأة... ربما رأى الشروة تخرج من الباب، كما ظنت فرانسيسكا بسرور وحشي.

مال نحوها متمتماً: «اسمعي. هل يمكننا أن نتحدث؟ أعني على انفراد».

فأجابت: «لا».

طرف بعينيه، وفكرت فرانسيسكا في أن آماله تحطمت لأن امرأة تقاومه..

لكن عزيمته لم تثبط، فقال بنفس اللهجة الواثقة: «حفلة الغداء هذه لم تكن فكرة جيدة. ولكن هناك أشياء أريد أن... نناقشها».

جمدت فرانسيسكا مكانها. أتراه سيقول لها في وجهها إنها عديمة الجمال قارصة اللسان؟ ووجدت نفسها ترتجف، ونظرت إلى حيث كان أبوها يودع مضيفته مبالغاً في إطرائها، فقالت لكونراد ساخرة: «آه، كل

شيء واضح. ليس هناك تفسير ضروري».

وفجأة بدت عليه العجلة: «بل هناك، كنت مغتاظاً من.. حسناً، يمكننا أن نتحدث عن ذلك فيما بعد، لقد شعرت بأن جدي يحرك أموري خفية، لكن ذلك ليس سبباً لأن.. أجرح مشاعرك...».

فنظرت إليه غاضبة: «هل تعتذر إلي؟».

فقال: «نعم... لا، يا الله!».

ودس يده في شعره الكث: «اسمعي، أنا آسف. هل هذا يكفي؟».

وبدا عليه فروغ الصبر، حسناً هو الآن على الأقل لا يستعلي عليها.

وقالت: «هذا لا يكفي».

تأملها جزءاً من الثانية، ثم قال بأسف: «أنت لست متسامحة جداً، أليس كذلك؟».

منحته ابتسامة واسعة غاضبة. وقالت: «أنا ابنة أبي. ونحن حقودان للغاية».

فقال وقد شابت صوته نبرة تسلية بغيضة: «هذا ما أراه، وأنا آسف. لم أقصد قط أن أجرح مشاعرك... ألا يمكننا أن نجتمع في مكان ما؟».

فقالت باختصار: «أنت لم تجرح مشاعري. أتصور أنك تنظر إلى كل إنسان باحتقار.. لذا لن أعتبر تلك الإهانة شخصية. ثم لا، لا يمكننا أن نجتمع مرة أخرى».

قال: «أنظر باحتقار...؟».

قال ذلك مصعوقاً. ولأول مرة هذا النهار، بدأت فرانسيسكا تشعر بالمتعة، فقالت بمرح: «ظننت أن الصدق قد أصبح شيئاً رجعياً. فالناس لم تعد تنظر للملوك نظرة ذات رهبة، أليس كذلك؟».

ثم أضافت بشكل أقل براءة بكثير: «خصوصاً إذا كان الملوك الذين نتحدث عنهم هم عصابة من قطاع الطرق الجبليين».

أدهشتها ردة فعله لكلامها هذا. فقد توقعت الغضب والسخط، وما إلى ذلك. ولكن ما رأته هو نظرات ثابتة. وساد صمت يثير الأعصاب.

ثم قال ببطء: «هل تجدين كثيراً من التسلية والمتعة في ذلك الأمر؟».

أجابت: «ماذا؟».

فقال: «إنكار أن أسرة دوميتيو هي الأب الروحي «لمونتاسورو».

فقالت بكبرياء: «أتريد أن تقول إن هذا غير صحيح؟».

أجاب: «أنت تعلمين ذلك».

انفجرت تقول: «دوماً كان أبي يقول...».

فقاطعها بلهجة ذات معنى: «أبوك ليس في وضع يؤهله للحديث عن قطاع الطرق».

اشتبكت نظراتهما كالسيوف. وجذبت نفساً كالفحيح: «لا أراك أرجعت إليه نقوده».

فقال بتسلية: «لا دخل لذلك في هذا الأمر. وأنت تعرفين ذلك».

وكان هذا صحيحاً. فقد كانت تعرف جيداً أن تبرع أبيها سيذهب إلى تمويل مستشفى متنقل في مونتاسورو، وطبعاً لن يعيد كونراد دوميتيو هذا إلى أبيها مهما كان رأيه في أخلاقيات أعماله.

كادت تختنق غضباً، وقالت: «قد لا تكون أسرة دوميتيو مافيا، لكنكم دوماً كنتم من كبار المستغلين، أليس كذلك؟»

فقال: «ماذا؟».

فأجابت بشماتة: «بحثت عنك على شاشة الإنترنيت».

ضاقت عيناه احتقاراً، وسألها بشكل لاذع: «هل تفتشين دوماً عن الإشاعات التي تتحدث عن مضيفيك؟».

لو أن فرانسيسكا لم تكن غاضبة، أو مجروحة المشاعر، إذن لكانت تراجعت في كلامها. لكنها لم تفعل، بل قالت بمرارة مهلكة: «أريد أن أكون على علم بكل شيء عندما أقابل غرباء. لأن كثيراً من الناس الذين يبدون محترمين يتضح فيما بعد أنهم رجال غشاشون».

ولم تدرك أنها تجاوزت الحد الا بعد أن رأت عضلة في خده تنبض.

وقال: «كان عليك أن تري الآنسة هيلير شجرة الأسرة يا فيليكس،

لأنها تظنك فناناً في الغش».

كان صوته مرتفعاً رغم أن شفتيه لم تكادا تتحركان.

أدركت إلى أي حدّ ساقها سخطها، وقالت بذعر: «لا».

فاستدار الرجلان المسنّان مصعوقين وتراجعت الملكة السابقة إلى مقعد بجانب النافذة. وهتف أبوها كثور غاضب: «فرانسيسكا؟».

فقد الملك السابق ابتسامته المهذبة أخيراً: «ماذا تظن الآنسة هيلير؟».

سرت في جسدها سخونة منهكة شعرت بها في خديها. ثم قالت: «لم أقصد قط...».

الآن كانت هي المخطئة. تتخبط وتعتذر، فيما هذه الأسرة المتكبرة تنظر عبر أنوفها المعقوفة إليها متعالية.

لقد انتصر عليها، أولاً وصفها بعدم الجمال وسلاطة اللسان، ثم قذف بها إلى الذئاب، وحملقت فرانسيسكا في الأمير كونراد بكراهية حقيقية.

كانت الملكة السابقة تنظر مفكرة، ثم قال الملك السابق ببرودة بالغة: «السلالة واضحة جداً، لم يشك أحد قط بها، ولا حتى الشيوعيون والفوضويون. ربما لا يريدون ملكاً، لكن الشك لم يتملكهم في أنّ لأسرة دوميتيو الحق».

قالت وهي تصرف بأسنانها: «لقد أساء الأمير كونراد فهمي».

خفض الأمير كونراد بصره إليها باهتمام زائف ثم قال برقة: «آه؟ وكيف؟ لقد قلت إنّه غالباً ما يثبت أن الناس غشاشون في النهاية».

قالت شاعرة نحوه بالكراهية: «نعم. أعرف هذا. لكنني كنت أتكلم بوجه عام، وليس بوجه خاص، ليس عن...».

فقاطعها: «ليس عني؟».

قال هذا برقة بالغة وتحدٍ ظاهر. وقف شعر رأس فرانسيسكا وكأنها حيوان شعر بالخطر. وقالت بيأس: «ولا عن أي شخص هنا».

ونظرت إلى أبيها ضارعة، ولكن لم يكن هناك عون من تلك الجهة، لأنه كان مصعوقاً.

ثم قالت الملكة السابقة بهدوء: «لدى فرانسيسكا وجهة نظر».

استدارت إليها الأعين بدرجات مختلفة تتراوح بين الذهول والتحدي.

فابتسمت قائلة: «ربما ليس بالنسبة إلى شجرة العائلة، بل بالنسبة للوثوق بأي إنسان هذا منطقي للغاية، كان بإمكاننا، أنا وأنت، أن يكون عملنا أفضل، يا فيليكس، لو كنا أكثر حذراً من الناس».

وجاء دور بيتر لكي يتصلب جسده، مشتماً رائحة إهانة، وكبح كونراد ابتسامة ثم أشاح بوجهه، ولكن ليس بالسرعة الكافية، فقد رأتها فرانسيسكا، وقررت أن الكراهية هي أحسن من أن يستحقها.

الهزيمة، هذا ما كان الأمير كونراد يستحق. أرادت أن تمحو تلك الإبتسامة المتفوقة عن وجهه، وترغمه على الاعتراف بالخطأ والشعور بالمذلة.

فجأة تنهد الملك السابق قائلاً: «معك حق طبعاً يا عزيزتي، هذا الجيل الشاب أكثر دنيوية مما كنا نحن عليه».

بدا أنه لم يكن يقصد المديح. وقالت الملكة السابقة بنعومة: «ربما إذن تريد الآنسة هيلير أن ترى شيئاً من العادات القديمة. تقيم الجالية المونتاسورية حفلة كل عام في يوم مولد كونراد الأسود بطل مونتاسورو وهذا العام يذهب ايراد الحفلة إلى متطلبات المستشفيات. وسنكون مسرورين جداً لو حضرت الحفلة بصفتك ضيفتنا يا عزيزتي».

الصمت المتوتر الذي تلا هذا القول كان دليلاً واضحاً على أنها تكذب، ذلك أن الملك السابق لن يكون مسروراً أبداً، كما أن الذعر بدا واضحاً على الأمير كونراد.

كان هذا ما جعلها تقرر الحط من قدره. ولكن الإذلال ينبغي أن يؤجّل. وحاليا ستكتفي بإذعانه المذعور.

وأجابت بسرور: «ما ألطف هذا منك!».

كبت كونراد غضبه بجهد واضح. واتسعت ابتسامة فرانسيسكا وهي تقول: «سأنتظر ذلك بشوق».

كانوا مسرورين لتركها تذهب. وكان الملك السابق فيليكس يكاد يرقص تلهفاً إلى خروجها من بيته.

قال كونراد: «سأنزل وأوقف لكما تاكسي».

تابعت فرانسيسكا سيرها وكأنها لم تسمعه، ولكنه مشى بجانبها.

مرة أخرى، تملك فرانسيسكا شعور غريب بأنها عرفته من قبل. التفتت إليه وشمت رائحة الغابات والبراري المقفرة... لا بد أن هذا من تأثير تلك الصور خصوصاً تلك التي يبدو فيها على الجبل.

تمتم في أذنها: «علينا حقاً أن نتحدث، وفي مكان محايد».

قالت بعنف: «ليس هناك مكان محايد بما يكفي».

بدت سيارة أجرة من بعيد فرفع كونراد مظلته وهو يسير نحو الرصيف قائلاً: «لا بد من ذلك. سأتصل بك».

فاستدارت إليه بعنف: «لا أريد أن أراك أبداً مرة أخرى».

وقفت سيارة الأجرة فانحنى أبوها يحدث السائق.

ـ كان عليك أن تفكري في ذلك قبل أن تقبلي دعوة جدتي إلى الحفلة الراقصة.

كانت قد نسيت ذلك، فعضت شفتها، ثم هزت كتفيها وقالت: «يمكنني أن أتهرب منها، إذا شئت، بحجة الصداع أو نوبة تسمم غذائي. سأخترع عذراً مناسباً».

ـ وكأنك أمضيت سنوات في التدرب على التملّص من المواعيد الاجتماعية.

ـ هذا صحيح.

ـ جبانة.

فقالت غاضبة دون أن تنظر إليه: «لا بأس! إذن سأقول فقط إنني غيرت رأيي».

فضحك: «أنت لا تعرفين جدتي، لقد قبلت الدعوة وليس هناك طريقة للتخلص منها أقل من إصابتك بمرض معدٍ».

كانت من الغضب بحيث أوشكت أن تبكي. فقالت بصوت كالفحيح: «لن يرغمني أحد على الذهاب إلى الحفلة. فأنا امرأة مستقلة لا يستطيع أحد أن يجعلني أفعل ما لا أريده».

ـ أتراهنين؟

التفتت إليه بسرعة الحية: «لا تخلط بيني وبين جماعة من الطفيليين اعتدت عليها على ما يبدو».

فطرف بعينيه: «طفيليون؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».

قالت هائجة بصوت مختنق: «أتحدث عن أناس يريدون أن يقلبوا الأوضاع ليعيدوا الوضع الرجعي فقط ليمثلوا دور الملك والملكة، وأنا لست واحدة منهم، فاغرب عن وجهي».

وكادت تدفع أباها عن طريقها وهي تصعد إلى السيارة.

* * *

قال له جده: «يا لها من امرأة فظيعة! أنا آسف يا كونراد».

كان الرجلان مستندين إلى خزائن المطبخ بينما الملكة السابقة تكوّم الأواني في ماكينة غسل الأواني.

قال كونراد بضيق: «حسناً، لم أكن أيضاً لطيفاً معها».

فقال جده: «هذا ما كنت أتوقعه فلم أر فتاة أقل منها جاذبية».

ولوّح بسيجاره يبعده عن ادوات الطبخ المعلقة على الجدار.

ـ أشك في أن بإمكان «كازانوفا» نفسه أن ينتزع منها ابتسامة.

ونظر إلى كونراد نادماً.

ـ انس أموال أبيها، لأنه سيدفع مرغماً ما تبرع به للمستشفى لكننا لن نعود إلى طلب تبرعات أخرى منه.

قال كونراد: «حسناً، هذا شيء حسن، على الأقل».

ثم سأله محاولاً التركيز على شؤون جده: «تبرعات أخرى؟ تبرعات لأجل ماذا؟».

بدا المكر على الجد وهو يجيب: «لدي فكرة عن الانتخابات».

قال كونراد دون أن يفهم: «انتخابات؟».

أجاب ببشاشة: «في مونتاسورو، لقد طلبوا مني الترشح لانتخابات الرئاسة، على لائحة غير سياسية بالطبع».

فقال كونراد: «ماذا؟».

- وهكذا بدأت حملة للتمويل.

انتصب كونراد في وقفته وقال عابساً: «ليس بأموال بيتر هيلير».

فقال الجد موافقاً وقد فقد شيئاً من بشاشته: «لا. رغم أنها كانت ستفيدنا، ولكن كان عليّ أن أدرك أن هناك عيباً في الفتاة حين اقترح ذلك. ما كان عليّ أن أجمعكما معاً. تلك الفتاة تعض».

تجاهل كونراد معظم هذا الكلام وقال بصوت غريب: «هل اقترح هو هذا؟».

فأجاب: «نعم. كنا نتناول الغداء معاً، فتلقى مكالمة تليفونية منها. وبعد ذلك قال.. ما هذا؟».

قال الجملة الأخيرة فجأة وهو يرى كونراد... كونراد المنطقي الهادىء يقبّض يديه وكأنه يريد أن يضرب شخصاً ما.

ثم قال بصوت هادىء لم يسمعه منه من قبل: «دعني أستوضح هذا. هل طلبت فرانسيسكا من أبيها أن يطلب يدي للزواج؟».

رفعت جدته حاجبيها، بينما قال الجد: «حسناً، فهمت أن هناك شاباً كان قد...».

ولوّح بيده بارتباك، فقال كونراد بنفس الهدوء: «نبذها؟».

- هذا ما حدث. نعم.

فقال: «إذن كنتُ أنا مجرد منحة للتسرية عنها».

فقال الجد: «الآن، يا كونراد...».

فقاطعه كونراد: «وقد اختارت المنحة بنفسها، ما تريده فرانسيسكا تحصل عليه فرانسيسكا».

فقال الجد بارتباك إنما متعاطفاً معه: «إنها فتاة وقحة».

تجاهله كونراد وهو يتابع: «بابا سيشتريني لها».

قال فيليكس بعظمة: «وعرش مونتاسورو وتقاليدها ليست للبيع ولو مقابل كل التبرعات في العالم».

صفقت الملكة السابقة باب ماكينة غسيل الأطباق بعنف لا يستلزمه الأمر. وقالت لزوجها: «كفى هراء، يا فيليكس، ليس لتبرع أبيها صلة بالأمر. وكونراد سيحكم على الأمر بنفسه كعادته دوماً».

انتبه كونراد من غضبه غير العادي، وما زال فكه يهتز متوتراً، ويبدو أنه لم يستطع السيطرة عليه. لكنه عندما تكلم، تكلم ببطء كالعادة: «نعم. سأفعل ذلك».

تبادل جداه النظرات. كانا يعرفان معنى تغير ملامحه هذا، ولم يكن يبشر بالخير بالنسبة إلى فرانسيسكا هيلير.

قال الجد متوتر الأعصاب: «هذا يعني أنه لا حاجة بك إلى رؤية تلك الفتاة مرة أخرى، أليس كذلك؟».

ابتسم كونراد. كانت ابتسامة بطيئة للغاية ولم تصل إلى عينيه البتة. وقال: «آه، بل هناك حاجة لذلك».

وكانت جملة رقيقة ناعمة لكنها مهلكة.

* * *

كان غاضباً جداً عندما استدار بالسيارة داخلاً إلى الشارع العام.

لا بأس. ما كان له أن ينعتها بأنها قارصة اللسان عديمة الجمال. كما أنه ما كان له أن يدعها تسمعه، وكان عليه أن يتحداها في اللحظة التي وصل فيها إلى البيت، ولا يسمح لها بأن تدعي بأنهما لم يتقابلا من قبل، كان عليه أن يعتبرها مخادعة كأبيها، ويقول لها هذا في وجهها.

اندفع بسيارته الرانج روفر الكبيرة في الشوارع المزدحمة عصر يوم السبت.

لم يكن، في العادة، يسوق سيارته في هذا الشارع في مثل هذه الساعة. بعد تعليم الصباح، كان عادة يمضي وقته مع الأصدقاء، وغالباً ما كان

يمضي الأمسية مع فتاة صديقة، لكنه منذ عرف فرانسيسكا هيلير، كره بشكل غريب أن يتصل بأي من أولئك النساء الماهرات المحنكات الموجودة اسماؤهن في دفتر عناوينه.

ولأمر ما، زاد ذلك في غضبه. وهو يفكر في أن ما يلزم فرانسيسكا هيلير، صدمة بعد صدمة، انفجار يهزها هزاً، ويجعلها تتساءل عن تلك الثقة بأن بإمكانها أن تجعل العالم كله يرقص على أنغامها، وأخذ يفكر في ما يمكن أن يهز فرانسيسكا هيلير.

* * *

سألتها جاز: «حسناً، هل حصلت عليه؟».

حملقت فرانسيسكا فيها: «إذا كنت تعنين ولي العهد كونراد، فأنا صرفته من ذهني».

وصرفت موظفة يوم السبت من مكتب الاستعلامات، وثبتت نظاراتها على عينيها ونادت: «التالي».

لكن جاز قررت أن الوقت قد حان لكي تتصرف. فقالت لها: «تعالي إلى هنا قبل أن تصيبي زبوناً بنوبة قلبية من الخوف».

وتركت آلة تسجيل النقود لموظفة السبت وسارت مع فرانسيسكا إلى غرفة الموظفين الصغيرة، ثم سألتها: «ماذا حدث بحق الله؟».

حولت فرانسيسكا إليها عينين ملتهبتين. منذ تركت أباها عند شقته، لم تفعل شيئاً سوى التفكير في ما حدث في حفلة الغداء الفظيعة تلك.

قالت بصراحة: «أنا قارصة اللسان عديمة الجمال وهو لا يريد أن يتزوجني».

فسألتها: «ماذا؟».

ـ يبدو أن أبي عقد اتفاقية معهم لكي يتزوجني.

نظرت جاز إليها وهي ترمش بجفنيها... ثم ألقت بيديها في الهواء: «هل كل المونتاسوريين مجانين؟».

وافقتها فرانسيسكا بكآبة: «نعم، ألا ترين ذلك؟».

وقالت جاز: «لقد طلبت منك أن تدعيه إلى إلقاء حديث عن كتابه وليس إلى الزواج».

تملك فرانسيسكا الغيظ: «لست المسؤولة لأن أبي هو للمجنون. وعلى كل حال، بقية تلك الأسرة البغيضة أسوأ منه».

قالت جاز حانقة: «كم مرة قلت لك أن تركزي اهتمامك على عملك، وألا تمزجي العمل بالمتعة».

قالت فرانسيسكا: «المتعة؟».

ـ كان المفروض أن تصطاديه لكي تحضريه إلى مكتبتنا الباز، لا أن تبدئي عداءً إجرامياً معه.

وزفرت من شدة الغيظ.

ـ أتظنين أن هناك أي أمل في أن يأتي إلينا بعد كل هذا؟

تملك فرانسيسكا الهدوء فجأة: «ليس لدي فكرة، ولكن إذا أردت مني أن أتابع إقامة الندوات الأدبية المسائية، فابعدي ذاك الرجل عني».

ونسيت جاز ضيقها: «آه!».

وهكذا لم تدهش كلياً عندما دخل كونراد دوميتيو مكتبة الباز في اللحظة التي فتحوها صباح الإثنين.

كانت وحدها عند المكتب. انصفق الباب واندفعت هبة من هواء الربيع عبثت بأوراق دفتر التسجيل.

رفعت جاز بصرها فعرفت من يكون على الفور. كانت تنضح منه طاقة كافية لإشعال العالم، وسألها دون تمهيد: «أين هي؟».

حتى في المكتبة المزدحمة، كان يسير بخطوات واسعة وكأنه في البراري، خطوات واسعة مسيطرة.

بدأت جاز تبتسم: «صورتك لا تنصفك. مرحباً. أنا جاز».

فقال دون اهتمام: «مرحباً، أين فرانسيسكا هيلير؟».

أجابت بعذوبة مصطنعة: «أتعني شريكتي القارصة اللسان العديمة الجمال؟».

بدا لجاز وكأنه رآها فجأة فخمدت بعض ناره.

سألها: «هي أخبرتك بهذا، أليس كذلك؟».

فأجابت: «نعم».

ـ لا بد أنها كانت متكدرة.

فأجابت متأملة: «متكدرة؟ إنها مجرد طريقة لوصف حالتها. لكنني لم أسمعها قط تطلب مني أن أبعد رجلاً عنها».

أمضى كونراد وقتاً استوعب فيه هذا الكلام. ولهذا كان من سوء الحظ أن فرنسيسكا قد عادت من رحلتها وجمدت عند العتبة، ثم القت على جاز نظرة محرقة: «ما الذي يفعله هنا؟ لقد أخبرتك... أخبرتك...».

ثم خرجت عائدة إلى الشارع.

ونظر إليها بجمود: «أي مصيبة تجعلها..؟».

فقاطعته جاز بلطف: «لن تعود إلا بعد خروجك، كانت تعني ما تقوله».

فقال وهو يخرج من المكتبة: «آه.. هذا شيء مضحك».

ولكنه أدركها عند زاوية شارع كينغز رود.

قال: «لا بأس. تريدين مني أن أعتذر؟ أنا أعتذر».

كانت فرانسيسكا مندفعة كالعاصفة لا تكاد تلحظ أي طريق تسلك.. كانت تفكر في أن عليه أن يركع، نعم، هذا ما تريده، أن يركع عند قدميها، أما الاعتذار فهو لا يفيد، وصاحت به: «لا أريدك أن تفعل أي شيء إلا أن تدعني وشأني».

فقال: «لا تكوني حمقاء».

صرخت نائحة: «لا تعاملني باستعلاء».

فقال: «توقفي إذن عن الخداع».

تملكها من الغضب ما لم تكد تستطيع معه أن تتكلم: «أنا لا أخدع».

ـ لا؟ لماذا إذن تتظاهرين بأننا لم نتقابل من قبل؟ هل كان ذلك لمصلحة بابا هيلير أم لمصلحتي؟

فقالت: «ماذا؟».

كان غضبه يعادل غضبها، لكنه كان أكثر منها سيطرة عليه.

وقال: «هل المفروض أن أتجاهل حقيقة أنك في أول مرة اجتمعنا فيها، شوهت سمعة بلادي وأسرتي؟ لم أسمعك تعتذرين عن ذلك».

فقالت: «أول...».

وسكتت.

جمدت مكانها.. دخان الخشب والصنوبر. والشعور المثير بأنها على حافة شيء خطير. وغضبه على جدّيه. وسؤالها (هل تقابلنا من قبل)؟ وجوابه (لا أدري. أخبريني هل تقابلنا)؟

قالت بصوت ثقيل كالرصاص: «أنت رجل الشرفة».

ـ لقد تأخرت في الاعتراف بذلك.

ـ لماذا لم تخبرني؟

لم يكن صوتها هو نفسه. وكانت ترتجف في داخلها، فواجهها قائلاً: «ولماذا لم تفعلي أنت؟».

كان صوته طبيعياً تماماً.. غاضباً لكنه طبيعي، وهو حتماً لا يرتجف في داخله... ولا خارجه.

قالت محاولة أن تقنع نفسها: «كان ذلك ثرثرة على الشرفة فقط. لم تكن هامة...».

فقال مكشراً عن أسنانه: «تعنين ليس بأهمية ولي العهد الذي كان سيشتريه لك أبوك».

كانت مخطئة عندما ظنت أنه لم يكن يرتجف. بل كان يهتز، فكرامته انبرت ثائرة لأنه ليس شخصاً قد يُعرض للبيع... أدركت فرانسيسكا ذلك، في نفس الوقت الذي أدركت فيه أنها لم تر قط رجلاً بهذا الغضب في حياتها، غضب بمثل عنف اندفاعه وهو يقول: «أنت.. أنت كارثة...».

سكت، فتصاعد الدم إلى رأسها. لو لم تكن تحمل بيديها فنجاني القهوة الورقيين، لعادت إلى طفولتها وضربته. وهكذا لم يكن لديها أي شيء سريع

من وسائل الدفاع عندما دنا كونراد منها.

مضت لحظة، لحظة واحدة فقط، شعرت فيها و كأنها في الفردوس، شعرت وكأنها عادت إلى بيتها بعد رحلة فظيعة وشعرت بما يشبه الحب.

وإذا بها ترفسه، ثم تلقي بالقهوة بعيداً، وتهرب.

كانت صوراً رائعة، حسناً، إنها سلسلة من الصور في الواقع... الصحافي المستقل، الذي كاد ييأس من ولي العهد كونراد، حمد الله ثم التقط صوراً للدقيقتين العاصفتين... حتى أنه أدرك فرانسيسكا وهي تصفق باب مكتبتها بعنف كما أظهرت الصور الدموع التي كانت تتألق خلف نظاراتها واضحة تماماً.

وفي الصباح التالي، ظهرت الصور في صحيفتين من الصحف الشعبية الملونة. ثم في كل المجلات المعروفة مع نهاية الأسبوع. ومع نهاية الشهر، كانت قد نُشرت في كل صحف أوروبا والولايات المتحدة.

توقفت فرانسيسكا عن الإجابة على تليفونها، ولم تعد تخرج قط دون وشاح حول رأسها، لقد كلفها هذا مبلغاً كبيراً للبوابين المستمتعين بذلك في المبنى الذي تسكنه ولكنهم نفذوا ما أرادت وسدوا الباب في وجوه مندوبي الصحف الشهيرة.

ودخل مكتبة الباز من الزبائن في أسبوع أكثر مما دخلها خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

وعقد بيتر هيلير مؤتمراً صحفياً تعهد فيه بدفع مبلغ لا يستهان به لتمويل حملة الرئاسة للملك السابق فيليكس ورفض أن ينجرّ إلى القول ما اذا كانت لابنته علاقة بولي العهد كونراد، وسرعان ما كانت أخبار الحملة تحتل أعمدة معظم صحف يوم الأحد الأوروبية. وانهال عليها مزيد من التمويل.

أما كونراد... حسناً، لم يتكلم كونراد مع أحد، لا مع الصحافة ولا مع أسرته ولا حتى مع بيتر هيلير المتسلط... لقد أعلن كونراد أنه يريد فقط أن يتحدث إلى شخص واحد، وهو فرانسيسكا.

٥ ـ لن أراك أبداً امرأة جامحة

رفضت فرانسيسكا أن تتحدث إليه، قائلة بغير صدق: «لا يهمني ما تقوله الصحف».

قال أبوها إن اهتمامها هو بنفسها، والملك السابق فيليكس يقول إن ذلك ينبغي أن يكون ببلادها، والملكة السابقة تقول إنه ينبغي أن يكون بكونراد، لكن فرانسيسكا قاومتهم جميعاً.

ثم، إذا بأمها تتدخل.

قالت اللايدي آنا، وهي تدخل إليها في الشقة وكأنهما كانتا أمس معاً وليس منذ أربعة أشهر: «يا لك من ماهرة، يا عزيزتي! لم أظن قط أن لديك كل هذا».

وكانت تبدو، بالوشاح حول رأسها، وكأنها قادمة من الحقول. فقالت فرانسيسكا بحذر: «لديّ ماذا؟».

ـ لديك القدرة على إبقاء أمير معلق بخيط، خصوصاً كونراد دوميتيو. جميع الفتيات كُنَّ يلاحقنه عندما كان فتياً، طبعاً، وقبل أن يصبح عالماً كثيباً. وها أنت الآن قد استطعت أن تجعليه يبدو جذاباً مرة أخرى، فيالك من ماهرة!

فقالت فرانسيسكا غاضبة: «جذاباً؟».

كبحت أمها ابتسامة: «بالتأكيد! كل شخص يقول إنك تحطمين قلبك لأجله. لا شيء يجعل الرجل جذاباً بهذا الشكل مثل تحطيم القلوب من

بعيد».

قالت فرانسيسكا بشبه صراخ: «من بعيد؟».

سألت اللايدي آن ببراءة: «أليس هذا ما يسمون ذلك عندما تعرفين كل شيء عن شخص دون أن تكوني على علاقة معه».

قالت: «أنا لا...».

قالت أمها متأملة: «نعم. هذا يظهرك وكأنك غارقة في حبه منذ سنوات. يظهرك وكأنك تعرفين الكثير».

قالت فرانسيسكا ببرودة: «إنهم الناشرون. فأنا في وضع فريد».

قالت أمها: «نعم هذا ما تقوله الصحف. أتعلمين؟ لقد اتصل بي شخص وسألني عما إذا كنت تضعين صورته على جدار غرفتك عندما كنت طفلة؟».

أمسكت فرانسيسكا برأسها: «أيظنونني حمقاء إلى هذا الحد؟».

جلست أمها إلى مائدة المطبخ وأحاطت فنجان القهوة بيديها وقالت بصراحة: «بل يظنونك فتاة ثرية لا يمكنها الحصول على رجل، مهما اجتهدت. وأنت تساعدينهم على التفكير في ذلك».

لم تستطع فرانسيسكا أن تتكلم.

قالت الأم وهي تعبث بفنجانها: «لا أدري إذا كان ينبغي لذلك الشخص أن يتحدث إليهم».

عادت إلى فرانسيسكا روح النكتة: «ويخبرهم أنه قد قام بمراجعة ما لديّ من أموال وممتلكات قبل أن يطلب يدي؟ لا أظن ذلك».

هزت الأم رأسها إزاء ابنتها غير المادية: «ليس عليه أن يخبرهم بالحقيقة، فكل ما عليه أن يخبرهم به هو انكما كنتما تخرجان مع بعضكما البعض وانتهى ذلك الآن. المحرر المطلوب منه البحث في هذه الأمور التافهة قادر على استغلال هذا الخبر إلى حد كبير ويجعلك تبدين غاية في اليأس والقنوط. ومع ذلك، لماذا تهتمين؟ أنت امرأة عاملة ولديك عمل ناجح».

لكن فرانسيسكا لم تجد في هذا عزاءً كبيراً. فتمتمت تقول: «كل هذا

أكاذيب ملفقة».

فقالت الأم: «الكاميرا لا تكذب. هل جعلك كونراد تبكين أم لا؟».

كانت فرانسيسكا قد نظرت إلى تلك الصورة الكريهة مرات كثيرة حتى أصبح بإمكانها أن ترسمها من الذاكرة.

قالت تعتذر: «جعلني أبكي من الغيظ».

فقالت الأم: «مثل أية فتاة منبوذة تماماً».

ساد صمت طويل مشحون وقفت فرانسيسكا بعده وقالت بحزم: «لا يهمني ما يظنه الناس. لكنني لا أريد أن يظن أصدقائي وأقاربي أنني أدور بحثاً عن رجل، سأتحدث إلى كونراد».

زمّت اللايدي آن شفتيها: «لا بد أن اهتمام الصحف الشعبية تلك يقف في طريق عمله. ربما كل ما يريده هو أن ينتهي من كل هذا. وربما لن يكون في هذا أي فائدة أو رجاء».

رفعت فرانسيسكا ذقنها بعزم.

كبحت أمها ابتسامتها، هذه هي ابنتها التي لا يمكن أن تعترف بأن هناك شيئاً لا رجاء فيه.

وقالت فرانسيسكا بحزم: «سيتحدث إليّ».

* * *

كان كونراد قد تخلى عن الأمل في أن تردّ فرانسيسكا على اتصالاته، وجلس إلى شاشة الكمبيوتر محاولاً ألا يفكر فيها ولكنه كان عاجزاً عن التركيز.

ما الذي يحدث له؟ حتى عندما تحطم زواجه من سيلفيا، لم يحدث له أن أصبح عديم القدرة على التركيز كما هو الآن.

رباه! لقد دفن نفسه في العمل بعد طلاقه من سيلفيا التي ذهبت للتزلج على الثلج والقيام بالحمامات الشمسية، والزواج أخيراً بمدرّبها الوسيم في لعبة التنس. ولم يحدث قط أن تذكر أحاديثهما كلمة كلمة، كما هو الحال مع فرانسيسكا كما أنه لم يعلم قط ما الذي فعلته به فرانسيسكا؟

لقد سكنت أحلامه، بتلك العينين البنيتين الكبيرتين، وتلك الذقن المتحدية! الشيء الذي لم يستطع أن ينبذه من تفكيره، هو الطريقة التي ارتجفت فيها عندما غازلها على تلك الشرفة المبتلة بالماء، وآخر مرة عندما رفسته.

لقد رفسته. وبدا عليها كأنها ستنفجر، وكادت المكتبة تنهار عندما صفقت بابها بذلك العنف، لكنها قبل ذلك ارتجفت، وتغير صوتها.

تصلب جسده للذكرى، وتأوه بصوت عال.

ما كانت لتعترف بذلك، طبعاً، رباه! ربما لم تدرك ذلك، لكن كونراد كان خبيراً في ذلك. وهو يعرف تلك النغمة في الصوت مهما كان مصدرها.

تباً لأبيها وتدخله! وتباً لفليكس ولكل الأسرة المالكة! وتباً لتجارة الكتب! وتباً لكل الاشياء التي تقف في الطريق! فما يريده هو أن يحملها بين ذراعيه ويأخذها معه إلى التلال، حيث لا مال ولا أبهة ملوكية.. حيث يكونان وحدهما فقط. سيجعلها تقف وتحارب لأجل الحصول على رجلها، لا أن تجعل أباها يشتري لها واحداً، وعند ذلك يعتني هو بها. آه، نعم. سيفعل ذلك. سيجعل تينك العينين البنيتين الناعمتين تتألقان كما تألقتا في تلك الليلة التي لم يكن أيهما يعرف إلى من يتحدث...

كان قلبه يتجاوب مع أفكاره بشكل ملحوظ، وضحك كونراد وقد انحبست أنفاسه، يجب أن يكفّ عن هذا. قال بصوت عال: «ليس الآن. عليها أن تتحدث إليّ اولاً».

وهي لن تتحدث إليه... بالتأكيد ما كان له أن ينعتها بانعدام الجمال وبأن لسانها قارص، ولم يكن يدري لماذا قال ذلك... ما عدا أنه اهتز عندما وجدها في منزل جديه تبحث عن زوج ذي لقب، لقد جعله هذا في أسوأ طبع مرّ عليه في حياته.

الأمير كونراد الهادىء المتزن! والمسيطر على نفسه! البالغ الثقة بنفسه وبتصرفاته، لم يستطيع السيطرة على لسانه، وبانسياقه مع أفكاره الحالية، لم يكن مسيطراً أيضاً على قلبه وكيانه.

خبط بقبضته على مفاتيح الكمبيوتر بعنف جعل الجهاز يصفر، وسمع صوتاً من الشاشة يخاطبه: «لقد انجزت عملية غير قانونية».

فكشر كونراد إزاء هذه الرسالة: «ليتني فعلت ذلك».

حاول أن يعزي نفسه بأن الأوضاع، أحياناً، ينبغي أن تُترك حتى تختمر، وسيأتي الحل إليه، وكان كونراد يؤمن تماماً بعدم استعجال الأمور.

المشكلة كانت أن قلبه لم يوافقه على ذلك، لكن على قلبه أن يصبر.

ثم انكب على التعليل الحذر للبروفيسور الياباني لتغير الحرارة بشكل متنافر.

وهكذا، عندما اتصلت به لم يكن مستعداً.

قالت بجفاء: «هنا فرانسيسكا هيلير».

جف فمه، ولم يستطع أن يفكر في ما يقوله. وبلهجة أقل جفاء تابعت: «هالو هالو.. هل هذا مكتب كونراد دوميتيو؟».

أجاب بصوت مختنق: «نعم».

قالت وقد بدا وراء ذلك الجفاء شيء من الرجفة العصبية سمع مثلها من قبل: «هل يمكنني التحدث إليه من فضلك؟».

ميّز قلبه ذلك قبل عقله. تنفس بعمق، ما الذي كانت تفعله به؟

وابتلع ريقه بصعوبة: «كونراد دوميتيو يتكلم».

بدت البغتة في صوتها: «آه..».

كاد يرى عينيها تتسعان. كانت قد أعدت حديثها مسبقاً لكنها لم تستطع الآن أن تفكر في كلمة واحدة منه، وكان كونراد واثقاً من ذلك.

فكر في مبلغ قوة معرفته بها، فهو يعرفها أكثر مما عرف سيلڤيا بعد ثلاثة أعوام من الزواج.

الزواج!

وفجأة انطبعت الصورة في رأسه، ونسي غضبه.. نسي كبرياءه. هو وفرانسيسكا قد خُلقا لبعضهما البعض، كان هناك حل واحد وممكن، وسيكون من الصعب عليه إقناعها به... ولكنه سيقنعها بذلك...

بإمكانه ذلك، إنه يعرفها... إنه يعرف نفسه. وهو صبور مصمم.

سيأخذ ذلك وقتاً، وهي ستحاربه في كل خطوة من الطريق. لكنها ستتزوجه في النهاية، ليس هناك حلّ آخر، وعادت تقول وقد ازدادت شكوكها: «هالو؟».

ابتلع ريقه، من هنا البداية، بداية الزواج بفرانسيسكا... قال بحذر ولطف: «لقد فاجأتني. لم أتوقع اتصالاً منك».

فقالت: «ليس صحيحاً إذن أنك أخبرت أبي بأنك لن تتحدث إلى أي شخص سواي؟ أعني عما تكتبه الصحف».

قال منتقياً كلماته بعناية: «بل هو صحيح. لكنني لم أظن أنك... مستعدة للحديث».

فقالت بخشونة: «أنا مستعدة».

قفز قلبه، وشعر لحظة أنه يكاد يختنق: «لماذا؟».

قالت: «لأنهم يقولون بأنني مغرمة بك من بعيد وأنا لا أريد أن يظن أصدقائي أنني أسعى لاصطيادك خفية».

قال: «آه».

حسناً، هذا هو السبب إذن! وكان مصدوماً لعمق خيبة أمله عندما قالت بفروغ صبر: «ألم تر الجرائد؟».

فأجاب: «لا. أنا لا أقرأ أعمدة الصحف التي تتحدث عن المشاهير».

فقالت: «ولكن عندما تكون أنت موضوع تلك الأعمدة...».

فقال بجفاء: «ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. لا أريد أن يخبروني عما أفعل وأشعر به، فإذا كان ما يقولونه صحيحاً، فأنا لست بحاجة إليه، وإذا كان ما يقولونه كذباً، فسيثير ذلك طباعي».

ساد صمت قصير. لا بد أنها تستوعب قوله هذا.

ثم سألته بكآبة: «هل تظن أن ثورة الطباع هي أمر سيء؟».

- إنه تضييع للطاقة.

فقالت وكأن هذا لم يعجبها: «ما أهدأ أعصابك! الا يقلقك هذا

أبداً؟».

- الشيء الوحيد الذي يقلقني هو التفكير في أنك قد تكونين منزعجة. والآن، أين سنتقابل؟

حاولت أن تتراجع. كان عليه أن يراهن على أنها ستتراجع حالما يعين الوقت والمكان. لكنه أفلح أخيراً في أن يقنعها، دون وعي منها تقريباً، حتى أنه تركها ضاحكاً عندما قطعت الاتصال فجأة.

وضع السماعة، وجلس يحدق إليها خمس دقائق كاملة ثم أخذ يدور بمقعده الدوار، وهو يلكم الهواء بقبضته. وعاد يقذف بنفسه إلى العمل.

* * *

لم تسمح له فرانسيسكا بأن يأتي ليأخذها من المكتبة، قالت هذا خوفاً من أن يلمحهما أحد رجال الصحافة لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي لأنها في الواقع لم تشأ أن تراهما جاز معاً.

كان يسير متمهلاً في الممر الطويل، طويلاً رشيقاً كلاعب رياضي في بنطلون جينز أسود، فبدا مدمراً، حتى الموظفة خلف مكتب الاستعلامات المنهكة أدركت ذلك، أما فرانسيسكا، التي أسرتها عيناه العميقتا الغور فقد رفرف قلبها بين جنبيها.

ربما... ربما عليها أن تستدير ومن ثم تنطلق هاربة... الآن.

لكن الوقت كان فات على ذلك. فقد رآها. وكان يبتسم، وفجأة، بدا لها ذلك أقل خطورة.

تقدمت نحوه، تضم «الكاتالوغ» إلى صدرها.

أومأ كلاً منهما للآخر، هو بشكل طبيعي وهي بضيق حاد.

كان بالغ التهذيب والاحترام، وقال: «آسف لجعلك تنتظرين».

أثار الاعتذار اضطرابها: «لا، لا، أنا التي جئت مبكرة... لا شيء يستلزم أسفك».

- إنها وجهة نظر.

ولمعت عيناه وهو يخفض بصره إليها وكأنه يدعوها إلى أن تشاركه

النكتة. وابتلعت ريقها، لم تكن تريد الدخول حالياً في موضوع المزاح هذا.

فقالت بلهجة ملتوية: «حسناً، أتريد أن تتفرج على أي من الصور المعروضة؟ أم نذهب فقط إلى مكان ما ونتحدث».

فقال: «يمكننا أن نرى لوحة او اثنتين ما دمنا هنا».

وكالعادة أيضاً، كان يعرف ما يعرضه المعرض فذهب مباشرة إلى لوحاته المفضلة، ثم هو يعرف كل شيء عن الرسم. هتف مسروراً: «انظري هناك (صورة رجل) لتيتيان».

نظرت فرانسيسكا، وقالت بأدب: «رائعة».

نظر إليها نظرة ملؤها التسلية: «ألم تعجبك؟».

هزت رأسها: «لا أعرف شيئاً من رسم «عهد النهضة الأوروبية»».

لكن الحقيقة هي أن الصورة لم تعجبها.. كانت صورة لرجل بثلاثة أرباع الوجه، أسمر يميل رأسه بشكل عدائي.

ابتلعت ريقها، ثم قالت: «الكمّان جميلتان».

ألقى كونراد برأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً، ثم سألها: «هل أخافك؟».

كان الوجه الأسمر المتحفظ مليئاً بالشر والمكر، وأكمل كونراد قوله: «والآن، لماذا؟».

فقالت وهي تتأمل اللوحة: «إنه لا يبدو لطيفاً للغاية».

طرف كونراد بعينيه: «لطيف؟ لا. ربما هو ليس كذلك. لكنه مليء بالحياة».

وأخذ يسير أمام اللوحة بنشاط: «انظري إليه. نظرياً، ترينه متكئاً على شيء ما. لكنه، في الواقع، مستعد للقفز والاشتراك مع الآخرين عند حدوث أي مشكل. يمكنك أن تري ذلك».

هل بهذا يشبه كونراد أيضاً؟ ما أقل ما تعرفه عنه.

تحت جفني كونراد الكسولين، ووراء تلك المشية الهادئة الحذرة، تكمن رجولة بعنف غابة تحترق.

نظرت مرة أخرى إلى اللوحة، ثم اكتشفت شيئاً: «إنه يتحدانا بالطريقة التي ينظر فيها إلينا، إنه يتحدانا أن نجرؤ على أخذه».

رفع كونراد حاجبيه: «ظننت هذا دوماً أيضاً، لكن النساء لا يرين ذلك، عادة».

فقالت بجفاء: «التحدي هو، تقريباً، اللغة الجسدية الوحيدة التي أميّزها، حسب قول أمي».

قال كونراد: «آه».

اختزن هذه المعلومة ليعود إليها في المستقبل، ثم قال: «هو بالتأكيد لا يقصد أن يتحدّى المتفرجين بل يحاول أن يجلب انتباه الرسام».

فقالت: «ولماذا يجلس أمامه ليرسمه إذا لم يكن يحبه؟».

تنفس الصعداء. وقال: «لا علاقة للمحبة بذلك، إنها كيمائيات الجسم وتجاوبها».

نظرت فرانسيسكا إليه دون أن تفهم: «آسفة. لقد ضيعتني».

فقال: «الرجل حسن الوضع، ناجح، شاب، ذو طاقة. ثم تعرّف إلى الرسام، والرسام يمكنه أن يقوم بشيء لا يحسنه هو. يمكنه أن يرسم. وعندما يأتي الناس لن يقولوا: «يا لك من وسيم... وما أجمل كميّك! وإنما سيقولون: «الرسام «تيتيان» عظيم حقاً».

سألته: «أتعني أنه غيور؟».

أجاب: «لا لا. طبعاً لا، بل هو يريد أن يكون «تيتيان» العظيم.. إنهما من نفس النوع، وكان الاثنان يهدفان إلى أن يكونا كأحسن ما يمكنهما. لكن تيتيان هو الموهوب. هذا هو التحدي الذي تقولين إنك توسّمته في الصورة».

فقالت ببطء: «فكرت في هذا كثيراً، أليس كذلك؟».

فأجاب: «أنا أحب تلك الصورة. أحببتها دوماً».

ـ لا، ليس الصورة بل مسألة التحدي تلك.

فأومأ ببطء: «أظن أن هذا صحيح».

فقالت: «أنت تتحدى الناس إذن؟».

انخفض جفناه فجأة. . أجاب بعد وقت طويل: «أحياناً».

فقالت: «إذن، كنت تتحداني أثناء حفلة الغداء الفظيعة تلك بكل تلك المحاضرات عن شجرة أسرتكم؟ لمجرد التحدي؟ احتيال؟».

وشعرت بالوحدة بشكل غريب.

نظر إليها لامع العينين، كيف ظنتهما سوداوين؟ إنها تراهما عن قرب الآن، فهما مزيج غريب من الأخضر والعسلي وقال برقة: «أنا لا احتال، وتحدياتي جادة كلياً».

قفزت فرانسيسكا وكأنها لمست سلكاً مكهرباً ثم قالت بتردد: «إذن لم يكن ذلك تحدياً منك؟ عندما كنت. . .».

فأكمل كلامها: «كريهاً».

أطلقت ضحكة قصيرة مجفلة: «نعم، هذه هي الصفة تقريباً».

أبعدها عن اللوحة: «هذا يذكرني بأول شيء أردت أن أفعله».

فسألته: «وما هو؟».

أجاب: «أن أعفر وجهي بالتراب».

قفزت فرانسيسكا في الهواء. أتراه استطاع أن يقرأ أفكارها؟.

قال: «كنت مجنوناً لشدة الغضب، ولم يكن مفروضاً أن تسمعي، ولكن مع ذلك ما كنت لأقول إنك قارصة اللسان لو لم أكن ثائراً غاضباً».

قالت تذكره عابسة: «قارصة اللسان معدومة الجمال».

لكنه لم يظهر التوبة، كان سحره يغلفها أشبه بلوحة طبيعية تبدو فيها الشمس فوق تلال ايطاليا.

وقال: «حسناً، ها أنت ذي، وهذا يثبت أن الأمر كان مجرد غباء من وحي ذلك الغضب».

سارت خلفه لحظة بصمت، وأفكارها تغلي، وتذكرت باري الذي كان ساحراً للغاية.

قالت: «ليتني لم اكن بهذا السوء في قراءة الناس».

جمد كونراد في مكانه يحدق إليها، وتحت جفنيه الثقيلين كانت عيناه تلمعان اهتماماً.

وسألها: «سيئة في قراءة الناس؟».

فابتسمت بجفاء: «أنا ميؤوس مني، أمي تقول إن السبب هو شبهي الكبير بأبي».

فسألها: «وهل أنت كذلك؟».

فأجابت: «في بعض الأشياء».

تقدمت باتجاههما مجموعة من السياح، وأثناء محاولاتهم البقاء بقرب دليلهم، سدوا الطريق على فرانسيسكا.

جرّها كونراد بعيداً عن السياج، وكأنه كان يفعل ذلك طوال حياته، وسقط منها «الكاتالوغ».

كان اقترابهما المكهرب هذه المرة أشبه بالبرق بلمعانه. كيف لم يشعر به؟ فكرت فرانسيسكا في ذلك بينما كانت هي لا تستطيع التنفس.

وكان هذا جنوناً. أن يغمى عليها كلما اقترب رجل منها. حتى عندما تركها تذهب لتلتقط «الكاتالوغ» ظلت تشعر بوجوده قربها.

قال: «لقد امتلأ المكان، أليس كذلك؟ أتريدين أن نذهب إلى مكان أقل ازدحاماً؟».

فابتلعت ريقها: «نعم، أرجوك».

أخذها إلى مقهى صغير مشرق وأحضر لها قهوة.

بدا فجأة جاداً تماماً. قال: «اسمعي. . . أتظنين أن بإمكاننا أن نبدأ مرة أخرى؟».

لم تعرف ماذا تقول، وهكذا لم تقل شيئاً.

قال باسماً: «أعلم أنني أطلب الكثير. ولو كنت مكانك لرفضت، ولكن هذا الأمر ليس لأجلي فقط».

طعنها قوله في قلبها، فهو ما كان ليرغب في أن يراها مرة أخرى لأنه يريد أن يراها.

قالت: «أظن من الأفضل أن توضح كلامك».

آه، كم بدت هادئة متمالكة لمشاعرها، وشعرت بالزهو لذلك.

وتردد: «وعدت جدي...».

كان تقريباً يحدث نفسه: «كما ترين، جدي فيليكس ملتزم تماماً بعهوده لمونتاسورو لا أدري إن كنت تفهمين ذلك. إنه يشعر بالذنب لفراره، رغم أنه كان في السابعة عشرة فقط، وكان سيُقتل لو بقي هناك، ولكن لم يكن احد يظن أن سقوط الحكم الشيوعي سيستغرق خمسين سنة تقريباً. ولأن الحياة كانت سيئة في مونتاسورو بالنسبة لأكثر الناس، قام جدي بما يستطيعه... أرسل معونات، ساعد اللاجئين... لكن الأمر الأساسي هو أنه كان ينبغي أن يكون هناك ليشارك شعبه شظف العيش».

قطبت فرانسيسكا جبينها: «هكذا إذن؟».

فقال: «حسناً... يتصور الآن أن لديه فرصة لتنفيذ ذلك».

فقاطعته: «أتعني أنه يريد أن يريح ضميره بأن يمطر شعبه بالهدايا، ويريد من أبي أن يدفع له ثمن ذلك؟».

فقطب جبينه: «الحق معك، فأنت مثل أبيك. هذا بالضبط ما كان سيقوله هيلير».

فرفعت رأسها بكبرياء: «أنا لا أشعر بالخزي لذلك».

تشابكت أعينهما ثم قالت: «على كل حال، هذا صحيح، فهو سيشتري لك مستشفى متنقلاً، اليس كذلك؟».

نظر إليها طويلاً بثبات، ثم قال بلطف: «إنه يشتري مستشفى متنقلاً لمونتاسورو».

فهزت كتفيها: «لا فرق».

فقال: «أنت مخطئة كثيراً».

قال ذلك برقة تبلغ حد الخطورة، لكن فرانسيسكا تملكها شعور غريب بأنه غاضب من نفسه اكثر مما هو غاضب منها، أو من أبيها.

استقام في جلسته ثم قال باقتضاب: «منذ سقوط الحكم الشيوعي حكم

مونتاسورو حفنة من مهربي الأسلحة، ومن الانتفاعيين، ولا شك إن بإمكان أبيك أن يخبرك بكل شيء عن هذا، والآن ستجري انتخابات، فيليكس سيترشح للرئاسة. وهو يريد...».

فقاطعته: «حملة للتمويل. أعلم هذا، فقد بدأ أبي يجمع تبرعات شعبية».

فتنهد ساخطاً: «ألا تفكرين بشيء آخر غير المال؟ إنه يريد التأييد من أبيك».

لم تقل فرانسيسكا شيئاً. لكنها استطاعت أن تبدو متشككة إلى حد جعله يعقد جبينه ويقول باختصار: «كان أبوك لاجئاً وفيليكس أيضاً كان لاجئاً وهما الآن يظنان أن بإمكانهما أن يقوما بشيء ما للمساعدة. هل من الصعب تصديق ذلك؟».

ولم يكن لهذا جواب.

بل هناك جواب، كما فكرت فرانسيسكا بتمرد، لكنها لن تقول له إن أبي يريد أن يشتري لي زوجاً ذا مركز. وهو يظن أن مستشفى متنقلاً لمونتاسورو هو الثمن. كيف تقول ذلك؟

وهكذا تمتمت تقول: «لا أظن ذلك».

ثم أخذت تحرك السكر في قهوتها دون حاجة لذلك، قال بمزيد من اللطف: «أعلم أننا بدأنا بخطوة خاطئة».

عند ذلك نظرت إليه: «بدأنا؟».

فبسط يديه بحركة استسلام: «لا بأس لقد فعلت ذلك وحدي. لم أكن أحب ما أعرفه عن معاملات أبيك في أعماله. كما أنني لم أحب فيليكس وهو يحاول أن يرغمني على الزواج أيضاً. لقد قصدت أن أكون لئيماً في حفلة الغداء تلك، لكنني لم أقصد قط أن أؤذي شعورك بهذا الشكل».

جفلت فرانسيسكا في داخلها، لكنها قالت بحيوية: «أنا لا أحب أن يرغمني أحد على الزواج».

فقال: «نعم، يمكنني أن أرى ذلك الآن».

ولم يبد عليه السرور لذلك.

وقالت: «والآن، بعد أن اعتذرت، فقد تصافينا إذن. أنت تصفح عني وأنا اصفح عنك، ولم يعد علينا أن نرى بعضنا بعضاً بعد الآن».

لماذا تشعر بذلك وكأنه نهاية العالم؟ وعادت تقول بصعوبة: «يمكننا أن نخبر كبارنا في السن أن ينسوا كل شيء عن سمسرة الزواج الغبية التي يقومون بها، ونخبر الصحافة بأن ذلك انتهى».

فتردد. ورفعت رأسها أشبه بحصان يتشمم رائحة معركة وسألته: «ألا يمكننا ذلك؟ أليس هذا هو سبب اجتماعنا هذا؟».

منحها تلك الابتسامة البطيئة التي، لو سمحت هي بذلك، لأحالت عظامها إلى ماء، وقال: «ليس بالضبط».

جمدت في مكانها، وقال هو بحذر: «أريد منك أن تقولي إنك ستتزوجينني».

بدت وكأنه أطلق عليها النار، والواقع أنه ما كان لخطته الماهرة أن تلاقي ردة الفعل هذه. لقد ظن أنه استعد لكل شيء، قد تثور، تغضب... قد تضحك على أي غزل يبدر منه.

ولكن لم يخطر له قط أنها ستجلس جامدة تحدق إليه وكأنها شاشة كومبيوتر، وبقيت كذلك دقيقة كاملة دون أن تطرف عيناها. ثم قالت: «هل أنت مجنون؟».

أجاب: «لا، أريد فقط أن أكون عملياً».

فقالت: «عملياً!».

ـ هناك سببان رئيسان. الأول، شعور فيليكس بأن ذلك يمنح حملته لتمويل الانتخابات دفعة جيدة هو بحاجة إليها. الثاني، يخلصنا ذلك من ملاحقات الصحافة.

فبدا العداء على وجهها: «ماذا تعني؟».

فقال بطلاقة: «كل إنسان يحب العشاق. فإذا كان أحد العاشقين أميراً ملكياً، والثاني ابنة اغنى رجل في العالم، فستكون لنا حكاية خرافية».

ـ أبي ليس أغنى رجل في العالم.

ـ سيكون كذلك عندما ينتهي الكتّاب من كتابة القصة.

وضحك لكنها لم تجد الأمر مضحكاً: «حتى ولو حدث هذا، ما علاقة ذلك بـ...».

ولم تعرف ما تدعو فيليكس به. وكان كونراد يراقبها بإعجاب عميق عندما استقرت على أن تقول: «جدك».

فهز كتفيه: «هناك علاقة. فمنذ أصبحنا، أنا وأنت، نجمين في المجلات المشهورة، ازداد ايراد حملته التمويلية. ويبدو أن الناس أخذوا أخيراً ينظرون إلى بيانه الذي أشاعه بشكل جدي، غريب!».

قررت أمرها: «حسناً، سأقبل رأيك هذا بالنسبة إلى حملة التمويل. فلماذا تساعدني خطبتي لك على أن أتخلص من ملاحقة الصحافة؟».

تمهل كونراد لحظات قبل أن يجيب. فهذا كان هو السؤال الأهم: «هل سبق أن لاحقك مخبري كتاب الإشاعات في الصحف؟».

عضت شفتها: «نعم. ولكنه لم يكن بهذا الشكل قط».

أومأ كونراد برأسه: «أعرف. صدقيني أن القول لهم إن ليس هناك قصة هو عبث، فهذا يجعلهم أكثر حماسة ويقظة».

أخذ يراقبها من تحت أجفانه وهي تحاول أن تستوعب معلوماته غير المرغوب فيها هذه.. كانت تعض شفتها وهي تفكر وأراد أن يقول لها أن لا تفعل هذا لأنه يؤذيها...

عيناها تصبحان قاتمتين عندما تأخذ في التفكير. أتراهما تعودان إلى لونهما إذا مال إليها...؟

ما لبث أن حدث نفسه بحزم أن يكفّ عن ذلك، فهذا ليس جزءاً من الخطة. وهو سيعرف تصرفها جيداً في الوقت المناسب.

قال بعفوية قدر إمكانه: «انظري إلى الأمر من هذه الناحية، طالما نحن ننكر هذا الأمر، فإن لديهم قصة، ولكن إذا أحطناهم علماً بخطوبتنا، نصبح مجرد خطيبين مملين».

عضت شفتها السفلى بحركة لا إرادية.

تنهد في داخله. لكن الأمر كان مشجعاً. حسناً، ربما مشجع للنساء الآخريات. لكن فرانسيسكا هيلير ليست كغيرها من النساء.

قال: «ما أقترحه هو أن نعلن خطبتنا في حفلة المستشفى الراقصة، ونتركهم يأخذون الصور التي يريدون. ثم ندع كل تلك الجلبة تهمد وتموت».

كانت مقطّبة بعنف: «وهل تظن حقاً أنهم سيتركوننا وشأننا بعد ذلك؟».

لم يكن صادقاً تماماً، لكنه في هذه النقطة كان صادقاً تماماً، فقال: «ليس في البداية. ولكن في النهاية نعم... وستأتي قصة أخرى. وفي نفس الوقت سيلتقطون صوراً كثيرة جميلة لي ولك ولخاتم الخطوبة».

قفزت ونظرت إليه بحفلة. فقال: «لا تقلقي. يمكن أن تعيديه إليّ بعد ذلك إذا كان يشعرك بعدم الراحة».

هزت رأسها: «ليس هذا هو الأمر».

سألها: «ما هو إذن؟».

تصاعد احمرار خفيف إلى وجهها: «لم أخطب قط من قبل، ويبدو أن الخطبة لأول مرة تجلب سوء الحظ إذا كانت حيلة».

فوجيء تماماً. ومضت لحظة لا يعرف ما يقوله.

يبدو أنها لم تلاحظ، وقالت بصعوبة: «منذ أسابيع قليلة فقط كنت سأ... حسناً، هذا غير مهم».

لكنه فكر في أن هذا مهم فعلاً، وأخذ ينظر إلى أصابعها التي كانت تلوي الملعقة البلاستيكية. هذا مهم كثيراً، ولأول مرة خطر في باله أن يتساءل عن الرجال السابقين في حياتها.

ولم يعجبه هذا.

وبدا أنها لاحظت فجأة الملعقة، وكيف أنها فضحت توترها، فألقت بها جانباً وكأنها أحرقتها. ثم رفعت ذقنها بتمرد: «أنا لست ماهرة في

العلاقات».

وللمرة الثانية، لم يجد كونراد ما يقوله.

وتابعت بعد لحظة: «أنا عادة أقول ما أعنيه، أنا لا أقرأ لغة العيون، كما إنني لست لبقة في الكلام أبداً».

فابتسم: «يبدو أنك امرأة ممتازة».

نظرت إليه بنفور: «أنت تضيّع الموضوع وهو أنه يجعلني كذابة فظيعة. لن اعرف ابداً كيف اتظاهر بأنني خطيبة فأنا سأنسى على الدوام».

فقال: «آه...».

قالت: «وإذا ألقى عليّ أي شخص سؤالاً محدداً، مثل ما إذا كنا حددنا موعد الزفاف، أو أين سنعيش، لن أستطيع أن أجيب».

نظر كونراد إليها، كانت متكدرة بشكل بالغ، وعيناها البنيتان غامضيتن بشكل يثير الشك، حتى خلف النظارات، لقد سبق أن رأى هاتين العينين غامضتين. لكنه، أدرك في المرة الماضية أن السبب هو عدم قدرتها على الرؤية بشكل صحيح بلا نظارات، أما الآن، فهو يظن أن وراء ذلك سبباً آخر.

وذهل وهو يجد نفسه يبتسم لها. ثم يقول: «ما هذا؟ لا تظهري بهذا الشكل. لا أحد سيرغمك على القيام بشيء لا تريدينه».

ابتلعت ريقها: «آسفة».

فقال: «لا تأسفي. المفروض فيك أن تقولي الحقيقة إذا شئت».

فضحكت بجفاء: «هذا عظيم منك».

قال بشكل لا إرادي: «ليس لديك فكرة كم هو عظيم».

شتت هذا ذهنها فنظرت إليه بحذر: «ماذا؟».

ـ لا شيء. حدثيني بدلاً من ذلك عن الرجل الذي تريدين أن تخطبي له.

والآن، لماذا قال ذلك؟ إنه آخر شيء يريد أن يسمعه، وشعر بارتياح جنوني عندما هزت رأسها وقالت: «أريد أن يخطبني؟ باري أصبح فعل

ماضي. غلطة أخرى من غلطاتي».

كانت تريد أن تمزح، لكن كونراد رأى أن الأمر أكثر من ذلك. وقاوم حافزاً لأن يأخذ وجهها بين راحتيه مواسياً. وقال: «أتريدين أن تتحدثي عن ذلك الأمر؟».

هزت رأسها مرة أخرى، وبعنف هذه المرة: «لا. لقد تعلمت درساً. ووضعت خطاً تحته ثم انتقلت إلى الأمام، هذه هي فلسفتي».

لكن كلماتها الشجاعة كانت تتناقض مع ما بدا في عينيها من كرامة مجروحة.

وقال ببطء: «إذن، فقد أصبح ذلك تاريخاً، وأنت مستعدة للانتقال إلى الأمام».

ابتلعت ريقها مرة أخرى: «نعم».

- إذا كنت واثقة...

- بكل تأكيد. لم يعد اسم باري دي لا توش في قائمة بطاقات المناسبات الدائمة عندي.

لاحظ الاسم، وبدلاً من ذلك منحها ابتسامة طويلة بطيئة فيها دعوة لها لتنضم إليه في المكر.

وقال: «أظن أن لديّ حلاً».

قالت بحفلة: «وما هو؟».

قال: «انسي كل هذا الهراء عن التظاهر بأننا مخطوبان والحكايات للصحافة. إننا الاثنين، راشدان، ونحن الاثنين عازبان، ولسنا مرتبطين. فلنجعل الأمر حقيقة إذن».

***

٦ ـ قفاز التحدي

قالت فرانسيسكا: «أنت مجنون».

استمرت في هذا القول إلى أن ذهب لإلقاء محاضرة علمية في متحف علم طبقات الأرض.

بعد أسبوع من الإتصالات التليفونية كل مساء قالت له ساخطة: «ألا تتخلى عما تريد أبداً؟».

فقال: «وأنت؟».

فقالت: «غالباً لا».

ـ هذا شيء آخر نتشابه به إذن.

فسألته ببرودة: «وما هو الشيء الأول؟ يبدو أنني نسيت ذلك».

ضحك بهدوء: «القدرة على تمييز التحدي».

لم تكن تثق به رغم طوله الفارع، وظرفه وثقته بسحره. وقد نجح ظرفه هذا، تباً له، إذ جعلها تضحك في كل مرة.

بذلت فرانسيسكا جهدها لكي تمحو ابتسامة الغطرسة تلك عن شفتيه، محدثة نفسها بأن ولي العهد كونراد هو رجل متكبر وانتهازي. كان يظنها عديمة الجمال قارصة اللسان إلى أن رأى مناسباً أن يتزوجها.

قالت بهزل خفي: «آه، أنا أميز التحدي فعلاً».

كان كونراد سريعاً كالقط، حتى وهو في الناحية الأخرى من التليفون، قال: «يبدو أن هناك مؤامرة، هل يمكنني المساعدة؟».

أطلقت ضحكة سرعان ما كبحتها. فقال: «آه، ما زلت متهماً. لقد سبق لي أن علّقت على عدم تسامحك هذا من قبل».

نقلت المعركة إلى ساحته: «أتلومني؟ لقد كنت سافلاً طوال حفلة الغداء الفظيعة تلك».

فقال: «أنت نفسك كنت حادة الطبع. على الأقل أنا اعتذرت».

قالت بغموض: «الكلمات رخيصة».

ـ آه... تريدين أعمالاً أليس كذلك؟ كلفيني بمهمة... فإذا أكملتها تتزوجينني. موافقة؟.

فقالت: «آه... كبّر عقلك».

ثم وضعت السماعة بعنف. ولكن عندما اتصل بها في الليلة التالية، كانت قد دوّنت مسبقاً قائمة متطلباتها.

قالت: «حسناً. قبل كل شيء عليك أن تكون حسن الخلق مع أبي. أعني بشكل حقيقي، لا أن تنظر إليه باحتقار وتأخذ في اللغو والتلميح إلى سياراته «الڤيراري»».

قال متذمراً: «أنت تضعين شروطاً صعبة. سأحاول. ماذا بعد؟».

قالت: «اعترف بأنك استغللت لقبك الملكي لكي تنشر كتابك السخيف ذاك».

ساد صمت قصير قال بعده ببرودة ثلجية: «لم أفهم».

ـ ذلك الشيء عن البركان مع الصور.

ـ أقترح عليك أن تقرئي الكتاب أولاً، ثم تسأليني ذلك مرة أخرى، إذا جرؤت.

وكان دوره في خبط السماعة.

وهكذا وجدتها جاز في الصباح التالي تتسلل خفية إلى ناحية العلوم المبسطة في المكتبة. فقالت لها: «إذا كنت تبحثين عن كتاب الأمير الساحر، فهو تحت الطلب. لأننا بعنا كل ما عندنا».

أجفلت فرانسيسكا شاعرة بالذنب: «لا لا. كنت فقط مهتمة بما هو رائج حالياً».

واختطفت مجموعة من مواد القراءة واتجهت بها إلى صندوق النقود.

قالت جاز ضاحكة: «أراهن على أنك كذلك».

ثم عادت تقول: «سأعيرك كتابي شرط أن لا تبقعيه ببصمات أصابع شوكولا أو تمزقي أطرافه. أنا قلقة على الكتاب لأنك تعرفين الرجل».

اعترضت فرانسيسكا على ذلك لكنها مع ذلك قبلت العرض قائلة بغطرسة: «من غير المحتمل أن أبكي لكتاب عن الزلازل».

لكنها كانت مخطئة. لأن كونراد نقل معظمه عن يوميات رحلته. سرده الواقعي للحقائق والصور الفوترغرافية المروّعة جعل قلب فرانسيسكا يثب إلى حلقها.

وعندما اتصل بها تلك الليلة قالت له على الفور: «آسفة ما كان لي أن أقول ذلك عن الكتاب. إنه غير عادي».

فقال بسرور صادق: «شكراً. رغم أنني اعترف أن الناشر سرَّ لأنني ولي عهد، أنا فقط من يظن أن لا صلة للأمر بذلك».

تابع: «والآن، هل تتزوجينني؟».

أجابت: «لا».

فتنهد: «ماذا عليّ أن أفعل غير هذا؟».

ضحكت دون أن يراها، عليه ثانياً أن يتخلّى عن رأيه في أنها عديمة الجمال قارصة اللسان. لكن سيأخذ وقتاً وجهداً من ناحيتها.

ما الذي يجعلها تشعر بنفسها عجينة بين يديه، كما كانت مع باري؟ وشعرت بالمذلة. أية حمقاء يظنانها؟ وهجرتها كل رغبة في الضحك.

قال: «فرانسيسكا.. أما زلت هناك؟».

انتبهت قائلة: «نعم. أنا هنا».

فقال باهتمام: «ما بك؟».

أجابت بعنف مختلقة عذراً: «لا شيء. لقد أوقعت لتوّي كتاباً عن المنضدة».

لكنها أسرعت تغير الموضوع، وبقيت تغيّر الموضوع في كل مرة يتجه الحديث إلى منحى عاطفي، صميم... حدثته عن وظائفها العديدة التي

زاولتها، وعن والديها المتقلّبين، عن السرور الذي تجده في مكتبتها الباز لكنها لم تخبره عن باري، وهو لم يسألها أيضاً.

حدثها ما معنى أن يكون خبيراً بالزلازل: «عليّ أن أكون بجانب الكمبيوتر معظم الوقت، ولا أخرج من المكتب إلا في أحيان قليلة. كان أبي يقول دوماً إن هذا لا مناص منه».

مع أنها لا تفهم الناس جيداً، إلا أنها واثقة من أنه كان يحب أباه كثيراً، كان والداه قد غرقا في حادث غرق مركب عندما كان كونراد في العشرين من عمره. لم يكن يتطرق إلى هذا الموضوع البته، وكانت فرانسيسكا أكثر خجلاً من أن تسأله. فالواضح أن ذلك يؤلمه، وكانت هي، كما تظن، تفتقر إلى اللباقة في التعامل مع مشاعر الناس.

لم يلبث أن اتصل بها أبوها وقال إن كونراد دعاه للذهاب معه مرة أخرى. وأخذه في جولة سارة جداً في المدينة انتهت بعشاء في احدى الكليات ضيوفاً على صديق لكونراد.

وقال: «يا لهم من أناس ممتعين واذكياء! لقد دعوني للذهاب معهم إلى مسابقة في الشطرنج».

قال أبوها هذا مسروراً: «وأنت مدعوة أيضاً، لقد طلب مني أن أدعوك بشكل خاص».

رأت فرانسيسكا أن هذا الشرط من شروطها قد أنجزه كونراد، وخفق قلبها، هل من الممكن أن ترى كونراد على عتبة الباب وقد أنجز كل شروطها؟ طالباً منها إتمام الخطوبة؟ وخطوبة حقيقية؟

لم يفعل هذا، لكنه عرض عليها أن يجيء أمسية في مكتبتها يحاضر فيها عن كتابه. وعندما جاء، أوضح بأن هذه خدمة خاصة لفرانسيسكا. كانت هي المحاضرة الوحيدة في سبيل دعم كتابه (رماد تذروه الرياح)، وقد أخبر كل شخص بذلك.

جذبت المحاضرة مجموعة ضخمة من الناس، وقام عدة مصورين بالتقاط صور لكونراد بجانب فرانسيسكا. وكانت هناك صورة له بشكل

خاص وهو يبتسم لها من فوق رؤوس المعجبين الذين كانوا يطلبون توقيعه على دفاتر «الاوتوغراف».

رأت فرانسيسكا ذلك فتملكها الشك، ما الفائدة من أن تخبر نفسها بأنهما ليسا على علاقة حميمة، بينما هناك صور كهذه في كل مجلة شعبية؟

أرسل إلى المكتبة أزهاراً في اليوم التالي لتلك المحاضرة ومعها بطاقة تقول (تقبّلي بعض الأزهار التي لن تضطري إلى رفضها.. ويمكننا أن نتحدث عن البقية...).

قالت عندما رأت نظرة جاز الساخرة: «فرحة سخيفة».

ومع ذلك أخذت الورود معها إلى البيت. وهي تضمها إلى صدرها مثل دمية بيد طفلة، محاولة أن تكبح جماح حافز يدفعها إلى القفز.

ومع ذلك، ذهلت عندما ظهر على عتبتها تلك الليلة. لكنها ما لبثت أن أخذت تعنف نفسها. أية امرأة طبيعية ترى هذا الأمر قادماً بطبيعة الحال.

وكانت فرانسيسكا بعيدة عن رؤية ذلك الأمر قادماً.

لم يكن هناك تحذير من مكتب حارس المبنى، ولا صوت أزيز التلفون الداخلي من الخارج بل كان مجرد ضغط على الجرس في الممر.

فتحت فرانسيسكا باب الشقة، متوقعة أن تجد الطارق أحد موظفي الصيانة. كان مظهرها أشعث إلى أقصى حد، وشعرها البني مرفوعاً على شكل ذيل حصان، ووجهها قذراً متوهجاً من أثر تنظيف البيت. وكانت أيضاً حافية وتمسك بمكنسة، ويداها في قفازات مطاطية.

كان ذلك بعيداً جداً عن تلك الأزياء الباريسية أو الثياب الأنيقة التي رآها فيها من قبل... وبعيداً جداً أيضاً عما تعهدت به لنفسها فقد تعهدت لنفسها بأن تفعل ما بوسعها ليراها جميلة رائعة، رائعة إلى حد يعصف به ويجعله يندم على أنه دعاها يوماً بعديمة الجمال، كانت صممت على ذلك، لكنها لم تعرف كيف تنفذه.

جمد كونراد مكانه لمظهرها هذا، وارتفع حاجباه بذهول ساخر.

وصرخت فرانسيسكا نائحة: «آه، لا».

حاولت أن تخفي المكنسة والقفازات المطاطية وقدميها الحافيتين، بحركة بهلوانية ملتوية. ففشلت وتقدم منها يأخذ المكنسة من يدها ويضعها بعيداً، وهو يقول باستسلام: «ها قد ذهبت افتتاحيتي».

أجفلت إلى حد توقفت معه عن جذب قفازيها المطاطين بعجز، وقالت ذاهلة: «ماذا؟».

فقال: «كنت جاهزاً للقول، أرجو ألا يكون هذا وقتاً غير مناسب».

انفجرت ضاحكة وقد تملكها الارتياح وهي ترى نفسها عادت إلى طبيعتها.

كان يبدو بالغ الروعة وكانت عيناه تضحكان. واكتشفت انهما خضراوان براقتان. كيف ظنت من قبل أنهما بنيتان؟

قال: «هل هذا تنظيف فصل الربيع الذي تتحدث عنه الإشاعات؟».

ـ حسناً، لا بد من التخلص من الفوضى بين الوقت والآخر.

كانت تثرثر، وكانت تعلم أنها تثرثر، ولكن كان هناك شيء ما في نظرات هاتين العينين الغريبتين الهازلتين هزها.

قالت فرانسيسكا بيشاشة مصطنعة وهي ما تزال تشد قفازيها دون جدوى: «يقال ابدأ بإزالة الفوضى من بيتك. وهكذا فكرت أنا... لماذا لا؟... آه، ماذا تفعل؟».

كان قد أمسك بمعصمها، فتسارع نبضها على الفور، وابتسم لها محدقاً في عينيها، فتملكها الدوار مما رأته في عينيه.

قال متهكماً بلطف: «أنزع قفازيك ما داما يزعجانك كما يبدو».

نزع القفازين الفظيعين بسهولة، ولكن ببطء جعل ضغط دمها يرتفع.

وسحبت يديها قائلة: «شكراً».

فالتمعت عيناه الخضراوان: «بكل سرور».

وأخذت تفكر في أنها ليست في السادسة عشرة، وليست خيالية، ولن تسمح لوجهها بأن يحمر خجلاً.

قالت دون لباقة: «حسناً، ما دمت هنا، فالأفضل أن تدخل».

ثم أغلقت الباب خلفه: «أتريد شراباً. ليموناضة؟ كوكتيل؟».

قال بعفوية: «لا بأس بكوكتيل الفاكهة».

وتبعها إلى المطبخ حيث أخذت تتفقد ما لديها من فاكهة.

قال عندما سكبت كوبين من الكوكتيل: «كنت أرجو أن أقنعك بالخروج معي للعشاء، هل هناك فرصة لذلك؟».

ولم تكن هناك فرصة بالطبع، فقد كان شعرها قذراً وأظافرها سوداء.

ـ لماذا؟

كان الرجاء والشك في لهجتها تلك.

قال برباطة جأش: «لأنني أريد أن تؤخذ لنا صورة أخرى وأنا أقنعك بأن تتزوجيني».

شهقت فرانسيسكا وهي ترشف الكوكتيل وتلا ذلك لحظات سيئة أخذت تقع فيها.

أخذ يربت على ظهرها. وعندما فشل هذا، أحضر ماء في فنجان.

حاول أن يظهر العطف ولكن ضحكه أضعف ذلك. سعلت فرانسيسكا وسعلت حتى دمعت عيناها، وقررت أنها تكرهه، وكانت واثقة من أنها لن تتزوجه أبداً أبداً. وعندما استطاعت أخيراً أن تتكلم، قالت: «لا بأس قبلت دعوتك».

لكن قولها هذا كان أقرب إلى قول «لا» أكثر من أي قول آخر.

قالت نعم للخروج للعشاء رغم أن معدتها كانت ترفض أي طعام. حتى أنها أخذت «دوش» سريعاً رغم حاجتها إلى حمام ساخن طويل، وكان بإمكانها ذلك على الأقل لولا شعورها البالغ بوجوده في الشقة.

وحدثت الوجه المتوهج في مرآة الحمام بأنه الآن يجول بلا شك بين رفوف الكتب يحلل المواد التي تقرأها. ولكن عندما خرجت، وشعرها ما زال مبتلاً، لم يكن ما سألها عنه ذوقها في القراءة وإنما ربطة العنق الرجالية التي كان يرفعها بيده. لم يكن مبتسماً. وفجأة، عاد لون عينيه عسلياً مرة أخرى.

قال: «ظننتك قلت إنه أصبح فعل ماضي؟».

اختطفت فرانسيسكا ربطة العنق من يده: «ولكنني لم أقل قط إنني ربة منزل لائقة أيضاً، أين وجدتها؟».

فأجاب: «خلف وسادة على الأريكة».

فقالت: «آه...».

لقد تذكرت كل شيء بوضوح الآن، ليلة طلب منها باري الزواج به.. نزع ربطة عنقه لأنها كانت تضايقه... وعندما رحل بعد ذلك بساعة نسي أن يأخذ معه ربطة عنقه.

سارت إلى المطبخ ودست ربطة العنق في القمامة، ثم استدارت. كان كونراد واقفاً عند العتبة ينظر إليها برزانة. وقفت متمالكة شجاعتها وكأنها تواجه فرقة الإطفاء ورفعت رأسها بتحد: «حسناً؟».

فسألها: «هل آلمك؟».

فهزت كتفيها: «ليس بشكل دائم».

فقال بانزعاج: «أما زلت تحبينه؟».

كان أكثر انزعاجاً مما كانت تظن فسألته: «وبماذا يهمك هذا؟».

فقال: «طبعاً يهمني. إذا كان قلبك محطماً من أجل باري دي لاتوش، فهذا سيسبب تعقيداً في الأمور».

تعقيداً في الأمور؟ هل هذا كل شيء؟ ولكن من الأفضل أن تعرف مسبقاً أسباب عرضه الزواج عليها، كيلا تعود فتتألم مرة أخرى.

فقالت: «قلبي ليس محطماً».

جاء كونراد إلى المطبخ ونظر إلى وجهها متفحصاً: «هل أنت واثقة؟».

فقالت بحدة: «كل الثقة... فأنا لست بطلة رومانتيكية وقلبي لم يتحطم، لقد تألم قليلاً إنما ليس بقدر ما تألمت كرامتي».

ضحك لذلك، لكنها بقيت تفاجئه وهو ينظر إليها باهتمام أثناء خروجها من الشقة للعشاء، وبقيت عيناه عسليتين قاتمتين طوال الأمسية.

لا يعني هذا أنه لم يكن مرافقاً ساحراً، لقد أخذها إلى مطعم فخم

هادىء، وأغدق عليها الأطعمة الشهية. وابتسمت لحكاياه عن نشأته الغريبة، وعندما أخذ يصف تلاميذ صباح السبت المشاكسين عنده، أخذت تضحك بصوت عالٍ.

وسألته: «وما الذي يجعل الشخص يعلّم أطفالاً صغاراً عن الزلازل؟».

فهز رأسه: «ليس الزلازل، وإنما لغة مونتاسورو، تراثنا الثقافي».

فقالت ذاهلة: «يا إلهي! لم اعلم أن هناك مكاناً لتعليمها».

فقال: «حسناً، صباح كل سبت، تتحوّل كنيسة سانت كاترين إلى قاعدة لمونتاسورو لمدة ثلاث ساعات».

فقالت: «هذا عظيم. ولماذا يهتم الناس؟».

ساد صمت قصير ثم قال بهدوء:

ـ اللاجئون ينقذون من تراثهم قدر ما يستطيعون.

شعرت بتعنيف لنفسها، وخفضت بصرها. شعرت بأن عليها أن تعتذر ولم تعرف كيف، ولهذا لم تقل شيئاً. وشعرت بكراهية لنفسها.

قال كونراد بصوت متزن: «ستجدين أن معظم المهاجرين يقومون بذلك. بعضهم، كجدي، يأملون في العودة ذات يوم، والبعض الآخر يريدون فقط من أولادهم أن يحسنوا التحدث بلغة أجدادهم».

جاهدت للتفكير في شيء طبيعي تقوله: «هل هذا هو السبب في تعليمك إياهم هذه اللغة؟».

ـ ليس هذا خياري. فقد ورثت هذا الالتزام.

لم تستطع أن تفهم من لهجته ما إذا تقبل هذا بسرور أو باستياء. المرأة العادية الحساسة تفهم هذا عادة، كما تظن.

كان عليها أن ترفس نفسها، أو تبكي، أو تصرخ، ولكن بدلاً من ذلك فعلت ما تفعله دوماً عندما تواجهها عدم كفاءتها، فقد غيرت الموضوع.

سألته: «هل هي سهلة؟ أعني اللغة».

دهش إلى حد الضحك: «المونتاسورية؟ بصراحة، هي شيء من

ديناصور، ما دمت تسألين. وديناصور هجين خمسون بالمئة منه سلافي، وأربعون بالمئة لاتيني».

- والعشرة بالمئة الباقية؟

فطوى فمه بمكر: «رجل كهف خالص».

وسرعان ما توقفت عن كراهيتها لنفسها، نظرت إلى العينين اللامعتين وفكرت في أن هذا الرجل جذاب بشكل كبير. ومن الممكن أن أغرق في حبه.

ولكنني فعلاً غارقة في حبه الآن.

قالت بصوت مرتفع: «لغة رجل الكهف؟».

- ربما في هذا بعض المبالغة، لكن الجبال بقيت مسكونة زمناً طويلاً، حتى أنه قيل إن صوراً كانت هناك على جدران الكهوف، لكنها ضاعت الآن. ليس لديك فكرة عن مقدار التقاليد المتوارثة التي محاها الحكم الشيوعي، خصوصاً في سنواته الأولى. أرادوا أن يجددوا كل السواحل ويجعلوها عصرية، يقول جدي إن ذلك كلفهم روح الجبال.

أجفلت فرانسيسكا من هذه الجملة المأساوية وهتفت: «روح الجبال؟ آه، أرجوك».

فتنهد: «أعلم هذا. وأنا أيضاً لا يمكنني أن أتصور ذلك لكنه يعتقد ذلك حقاً، والواقع أن الناس يريدونه».

توقف عن الكلام رغم أنه كان بإمكانه أن يستمر وبقي السؤال الذي لم يُطرح معلقاً في الهواء.

بقي لها لتنطق به، فقالت ساخرة: «وتريد مني أن آتي للمساعدة؟».

مال إلى الأمام وقد بدت عليه لهفة مفاجئة: «هذه هي الخطة، سنعقد خطبة حقيقية، كما قلت. لا ادعاء فيها... سنأخذ الأمور كما تجيء».

وفكرت بشكل لا إرادي لو أن... صُدمت لعنف ذلك، ولم يلاحظ كونراد وهو يقول: «نذهب إلى حفلة المستشفى الراقصة. نعلن خطبتنا، ثم نتابع حياتنا. لديك عمل، ولديّ عمل. أنا أسافر كثيراً وسأذهب إلى

مونتاسارو لمدة شهر هذا الصيف حيث آخذ أول مستشفى متنقل إلى الجبال. ولكن عندما اكون في انكلترا، فسنخرج معاً كأي خطيبين عاديين».

حدقت فرانسيسكا إليه غير مصدقة: «كأي خطيبين عاديين؟ ومن تراك تخدع؟ نحن غير عاديين، ونحن لسنا خطيبين».

لم يؤثر فيه كلامها بشيء: «يمكننا أن نكون كذلك، ثم ليس هناك شخص عادي، إذا فكرت في ذلك».

فقالت ساخرة: «يا لك من ماهر».

تقبّل ذلك وكأنه مديح منها: «كل ما عليك أن تفعليه هو القدوم معي إلى المناسبات الرسمية. وسأدعك تأخذين مواعيد وبعض الملاحظات قبل الوقت».

تمتمت فرانسيسكا: «هذا عظيم! حفلات مع بعض الملاحظات المختصرة. هل أنت واثق من أن هذا فقط ما علي عمله؟».

- يعود الخيار لك في أي شيء آخر...

لم تشأ أن تتداول معه حول هذا الموضوع، فرفعت ذقنها متحدية وسألته: «مثل ماذا؟».

تردد، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة: «حسناً، أن تدعيني أخطب ودّك، طبعاً».

فكادت تقفز عن كرسيها: «ماذا؟».

تلاشت ابتسامته وخفض بصره وعندما رفعه بدا السأم في عينيه: «أنت التي قلت إنك لا تريدين خطبة زائفة».

فقالت متلعثمة: «لم اكن اعني أنني أريدك أن... أعني ليس عليك أن... حسناً، الفكرة كلها غير عقلانية».

فقال: «لا، هي ليست كذلك، يمكننا أن نتخذ خطبة زائفة، أو أن أخطب ودّك، ليس هناك طريق وسط».

فقالت بحدة: «يمكنني أن أنسى كل شيء وأعود إلى بيتي».

كانت مستاءة للغاية لا تدري لماذا.

رفع بصره: «أيمكنك ذلك؟».

فكرت في صف اللفات صباح يوم السبت، وفي الجد فيليكس الذي يحاول أن يعوّض عن هربه من بلاده منذ ستين سنة، وفي رسوم الكهوف الضائعة. وفوق كل شيء، في القرى الجبلية حيث لا عناية طبية وفي الرجل الذي سيسافر إليهم ليأخذ لهم المستشفى المتنقل. وقالت بشيء من الغضب والقنوط: «لا لا. لا أستطيع ذلك. أظن أن عليّ أن أقوم بما يتوجب علي. فأنا نصف مونتاسورية على كل حال».

ساد صمت قصير، وتملكها شعور غريب بأنه يشعر بخيبة الأمل.

لكنه قال بنعومة: «إذن فقد اتفقنا».

أدركت أنها لا بد أخطأت مرة أخرى!

مشى معها إلى شقتها. كانت السماء صحواً والليل منعشاً والشوارع خالية تقريباً. وعندما مال ناحيتها وهما يمشيان جنباً إلى جنب، شعرت بأنها حمقاء وأنها تحمّر من منابت شعرها إلى أخمص قدميها.

حدثت نفسها بعنف بأن تتماسك، وحمدت الله لأن أنوار مصابيح الشارع تسلب كل لون منهما هما الاثنين. فهو، على الأقل، لن يرى لونها القرمزي من الخجل. لكنه يمكنه أن يشعر بتوترها، فلا شيء يخفي ذلك.

قال لها هازلاً، إنما بشيء من التوتر: «لا تخافي... فأنا لم أقفز على امرأة في الشارع حتى عندما كنت مراهقاً».

قالت: «لست خائفة».

كان هذا شركاً... وكادت تصدق ذلك.

لقد حاولت ذلك حقاً، طلبت منه الدخول لتناول القهوة. دعته إلى المطبخ وثرثرت معه وكأنها تعرفه طوال حياتها. أخذت القهوة إلى غرفة الجلوس وتكوّرت على الأريكة بعد أن رفست حذاءيها من قدميها، وكأنهما على علاقة وطيدة. لكنها لم تنظر في عينيه، وبقيت بعيدة عنه مسافة.

عند ذلك وقف كونراد يتحدث. وضع كوب القهوة من يده ثم تقدم نحوها إلى الأريكة: «فرانسيسكا».

كانت تتحدث عن جاز ومخططاتها. فسكتت تقول: «نعم؟».

وبلطف بالغ جلس على الأريكة بجانبها: «علينا أن نبدأ في مكان ما».

بدا هادئاً بشكل فظيع. وقالت: «أظن ذلك».

مدّ ذراعه على مسند الأريكة خلفها: «هل أنت واثقة من أن قلبك لم يتحطم؟».

حسناً، بإمكانها على الأقل أن تجيب عن هذا السؤال بصدق. فقالت: «كل الثقة».

ـ وليس لديك علاقة أخرى يجب أن أعرفها؟

ـ لا... لا.

نظر إليها متفحصاً: «هل تعرضت لصدمة أثناء المراهقة سببت لديك عقدة نفسية؟».

ابتلعت ريقها: «لا».

فابتسم. كان من القرب منها بحيث شعرت به يبتسم داخل رأسها، وتابع يقول: «ولا خوف نفساني من خبراء الزلازل؟ لا ينبغي أن تخافي. أنت تعلمين أننا لا نتسبب بزلازلنا».

أجفلت لكلامه إلى حد أنها أخذت تضحك، تضحك من كل قلبها دون خجل أو كبت. تضحك عالياً. وكان هذا مهارة بالغة منه، لأنه جعلها تضحك...

نعم، مهارة بالغة، لكنه على كل حال، ذو خبرة بالغة. حتى فرانسيسكا، التي كادت مشاعرها تعميها عن كل شيء، أدركت ذلك.

والتفتت إليه وكأنها زهرة دوار الشمس عند الفجر، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد.

تمتم يسألها: «لماذا تضعين نظارات دوماً؟ العدسات اللاصقة... أحسن».

كان قلبها مسروراً وكأنها أصبحت فجأة شهرزاد أو مدام دي بومبادور، وقالت بصعوبة: «شكل عيني...».

همس يقاطعها: «عينان رائعتان، بلون حلوى «التوفي».

فشهقت: «لا أستطيع...».

قال مشجعاً: «ما الذي لا تستطيعينه يا فرانسيسكا الرائعة الجمال؟».

فقالت: «لا أستطيع.. لا أستطيع أن أضع عدسات، ماذا تفعل؟».

وتأوهت. ولم يحاول أن يجيب بل ضحك برقة ونزع عن وجهها نظاراتها.

انفتحت عيناها على اتساعهما... واسعتين قصيرتي النظر، كان بالغ القرب منها، حتى لم تستطع استجلاء ملامحه، وشعرت فجأة بالضعف وبالبرودة أيضاً.

جاهدت لتبتعد، وتتحسس نظاراتها، ولم يدعها تذهب تماماً.

سألها: «ما هذا؟».

ـ لا أستطيع أن أراك.

ووضعت نظاراتها على عينيها، وإذا بها تراه يبتسم، وكانت ابتسامة انتصار. قال: «اعترفي بأنك منجذبة إليّ».

ابتعدت عنه وكأن كلماته أحرقتها بحرارته، وقالت بذعر: «ما الذي تقوله؟».

ونظرت إلى كونراد برعب، لكنه لم ير هذه النظرة وهو يقول ببطء: «اتبعي قلبك فقط».

جاهدت للابتعاد عنه: «أرجوك. هذه... ليست طبيعتي. أنا لا...».

لكن فمه الهازل توتر، ولم يعد هناك هزل، إنما عزيمة عنيدة فقط.

همس: «أخبريني بما تريدين».

جعلتها كلماته تستيقظ بعنف من تصوراتها. وعادت إلى الواقع بارتطام بدّد كل شيء، وبشبه صرخة، هتفت به: «كفى».

أجفل مثلها: «ماذا حدث؟ ماذا فعلت لك؟».

أخذت تضربه على صدره بيدين بمثل ضعف فراشة الضوء: «لم أفكر

قط... لم أقصد قط... أنا لست بهذا الشكل... آه، دعني أذهب».

تراجع وكأنها طعنته. ثم قفز واقفاً: «ماذا حدث؟».

أدارت رأسها بعيداً عنه: «أرفض أن أكون ألعوبة أحد».

لم يكن قولها هذا قريباً من الحقيقة. لكنه يصلح لحالتها الآن، وساد صمت مؤلم. ثم سمعت صوتاً خفيفاً، فأدركت أنه يهمّ بالانصراف.

ـ تريدين مني أن أذهب إذن؟

شعرت بفكها ينبض توتراً. فالتفتت إليه... آه، بدا لها مجروح الكرامة للغاية! وصرخ قلبها بألم... لا.

لكن فمها قال: «نعم».

ثم انغلق بحدة كفخ الجرذان.

تراجع خطوة، ولكن قبل أن يذهب نظر إليها طويلاً ورأت نفسها في عينيه متكومة على الأريكة وعيناها ذاهلتان غير مركزتين رغم أن نظارتها موجودة.

وقالت بذعر حقيقي: «آه، رباه».

وأجفل كونراد. ثم خرج دون كلمة.

***

٧ - تبكي أيضاً.. وأيضاً!

لكنهما اتفقا على الخطة فربطها بذلك، وكانت هي من الكبرياء بحيث لم تتراجع. وحدثت نفسها بأن بإمكانها التصرف في هذا الأمر. رغم أنها، ليلة حفلة المستشفى الراقصة، وقفت أمام مرآة حمامها وارتجفت.

رأت نفسها غريبة، كل شيء فيها كان جديداً، ثوب جديد رائع التفصيل من الساتان. طراز شعر جديد أكثر جرأة مما اعتادت عليه، قرطان جديدان من الياقوت هدية من أبيها، زينة وجه جديدة عمل عليها العاملون في أهم دار للتجميل في لندن، هدية من أمها.

حتى عطرها كان جديداً ومثيراً للغاية فأصابها بالدوار. وهي لن تستعمله إلا في تلك المناسبة، وهو أيضاً كان هدية من الملكة السابقة انجليكا.

لم يظهر على جدة كونراد شيء سوى التهذيب منذ أخبراها معاً بخطبتهما لكنها استمرت تبدو متشككة حتى عندما كانت تراهما معاً منسجمين.

كل شخص آخر ظن أنه يحبها كثيراً إلا فرانسيسكا. وفرانسيسكا الآن لم تكن واثقة من أن ذلك العطر القوي ما هو إلا ازدراء غامض، فهو مصمَّم لأجل امرأة غامضة واثقة من ميولها، وليس لبائعة كتب تافهة متعلقة بأمير فاتن صعب المنال.

ولكنه لم يكن صعب المنال. إذ يمكنها الحصول عليه على طبق، وقد

أخبرها بذلك. ولكن فقط لأن لديها أباً ثرياً، فهو لم يقع في غرامها من أول نظرة. وهي لن تستطيع أن تحصل على قلبه.

هذا ما كانت تريده، والأسابيع بين تلك الليلة في شقتها والحفلة الراقصة أوضحت ذلك. كانت متلهفة إلى قلب كونراد كما لم تتلهف إلى شيء آخر في حياتها.

لا انتهاء معارك والديها، ولا البقاء في نفس المدرسة أكثر من سنة واحدة كل مرة، ولا أن يكون لديها أب غير محترم... لا شيء من هذه الرغبات تماثل عنف رغبتها في أن يحبها كونراد ذات يوم. كانت أحياناً تحلم بذلك، فتستيقظ مليئة بالحب والثقة... وعند ذلك... تنظر إلى صورتها في المرآة... آه... نعم... عديمة الجمال قارصة اللسان... كوني واقعية! وها هي ذي الآن واقفة أمام المرآة بثوب متألق، وشفتين متألقتين وأظافر متألقة وفي أذنيها ياقوتتان، كان ينبغي أن تكون كل شيء تحلم به لأجله... من الجمال بحيث لن يستطيع أن يصفها بعدم الجمال بعد ذلك، لولا أنها قط لا تشعر بأنها جميلة، كما أنها تشعر بثقل الرصاص في قلبها.

رن تليفون المدخل. منذ تلك الليلة، لم يعد كونراد يفاجئها بظهوره فجأة عند العتبة مرة أخرى. ألقت نظرة ذعر على مظهرها الأنيق، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم رنت الجرس تدعوه للدخول.

وقفت عند باب الشقة المفتوح، تدق بأصابعها على طلائه الأبيض، تنتظره، وحالما خرج من المصعد رآها، فوقف جامداً مكانه.

وقال: «تبدين... رائعة».

لم يبد مسروراً تماماً لهذا، كما كانت تتصور. لم يتراجع شاهقاً بذهول، وهو يتذكر انتقاده الطائش لها، وكانت خيبة الأمل ستتملك فرانسيسكا لو أنها لم تشعر مسبقاً بالذعر وقالت تصحح قوله: «بل أبدو زائفة تماماً».

وكان صوتها عالياً متوتراً كالطبل. فتقدم إليها وهو يسألها: «ما الذي لا يعجبك؟».

تركته يهدىء من روعها، شاعرة بالارتياح: «لا ينفك كل شخص عن

٧ ـ تبكي أيضاً.. وأيضاً!

لكنهما اتفقا على الخطة فربطها بذلك، وكانت هي من الكبرياء بحيث لم تتراجع. وحدثت نفسها بأن بإمكانها التصرف في هذا الأمر. رغم أنها، ليلة حفلة المستشفى الراقصة، وقفت أمام مرآة حمامها وارتجفت.

رأت نفسها غريبة، كل شيء فيها كان جديداً، ثوب جديد رائع التفصيل من الساتان. طراز شعر جديد أكثر جرأة مما اعتادت عليه، قرطان جديدان من الياقوت هدية من أبيها، زينة وجه جديدة عمل عليها العاملون في أهم دار للتجميل في لندن، هدية من أمها.

حتى عطرها كان جديداً ومثيراً للغاية فأصابها بالدوار. وهي لن تستعمله إلا في تلك المناسبة، وهو أيضاً كان هدية من الملكة السابقة انجليكا.

لم يظهر على جدة كونراد شيء سوى التهذيب منذ أخبراها معاً بخطبتهما لكنها استمرت تبدو متشككة حتى عندما كانت تراهما معاً منسجمين.

كل شخص آخر ظن أنه يحبها كثيراً إلا فرانسيسكا. وفرانسيسكا الآن لم تكن واثقة من أن ذلك العطر القوي ما هو إلا ازدراء غامض، فهو مصمَّم لأجل امرأة غامضة واثقة من ميولها، وليس لبائعة كتب تافهة متعلقة بأمير فاتن صعب المنال.

ولكنه لم يكن صعب المنال. إذ يمكنها الحصول عليه على طبق، وقد

أخبرها بذلك. ولكن فقط لأن لديها أباً ثرياً، فهو لم يقع في غرامها من أول نظرة. وهي لن تستطيع أن تحصل على قلبه.

هذا ما كانت تريده، والأسابيع بين تلك الليلة في شقتها والحفلة الراقصة أوضحت ذلك. كانت متلهفة إلى قلب كونراد كما لم تتلهف إلى شيء آخر في حياتها.

لا انتهاء معارك والديها، ولا البقاء في نفس المدرسة أكثر من سنة واحدة كل مرة، ولا أن يكون لديها أب غير محترم... لا شيء من هذه الرغبات تماثل عنف رغبتها في أن يحبها كونراد ذات يوم. كانت أحياناً تحلم بذلك، فتستيقظ مليئة بالحب والثقة... وعند ذلك... تنظر إلى صورتها في المرآة... آه... نعم... عديمة الجمال قارصة اللسان... كوني واقعية! وها هي ذي الآن واقفة أمام المرآة بثوب متألق، وشفتين متألقتين وأظافر متألقة وفي أذنيها ياقوتتان، كان ينبغي أن تكون كل شيء تحلم به لأجله... من الجمال بحيث لن يستطيع أن يصفها بعدم الجمال بعد ذلك، لولا أنها قط لا تشعر بأنها جميلة، كما أنها تشعر بثقل الرصاص في قلبها.

رن تليفون المدخل. منذ تلك الليلة، لم يعد كونراد يفاجئها بظهوره فجأة عند العتبة مرة أخرى. ألقت نظرة ذعر على مظهرها الأنيق، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم رنت الجرس تدعوه للدخول.

وقفت عند باب الشقة المفتوح، تدق بأصابعها على طلائه الأبيض، تنتظره، وحالما خرج من المصعد رآها، فوقف جامداً مكانه.

وقال: «تبدين... رائعة».

لم يبد مسروراً تماماً لهذا، كما كانت تتصور. لم يتراجع شاهقاً بذهول، وهو يتذكر انتقاده الطائش لها، وكانت خيبة الأمل ستتملك فرانسيسكا لو أنها لم تشعر مسبقاً بالذعر وقالت تصحح قوله: «بل أبدو زائفة تماماً».

وكان صوتها عالياً متوتراً كالطبل. فتقدم إليها وهو يسألها: «ما الذي لا يعجبك؟».

تركته يهدىء من روعها، شاعرة بالارتياح: «لا ينفك كل شخص عن

إعطائي نصائح».

ضحك: «يفعلون دوماً ذلك. ذلك جزء من الطبيعة البشرية».

قالت: «يخبرونني دوماً كيف أفعل أشياء لم اكن أعلم أنني بحاجة إلى التفكير فيها، مثل الركوع والنزول من السيارة، وشكل الدخول إلى قاعة الرقص. أمي تقول: اجعلي رأسك مرفوعاً. جاز تقول اجعلي عينيك في أعين المصورين، وجدتك تقول لا تنظري إلى المصورين، ولا أدري ما أفعل وياليتني لم أدخل هذا الأمر!».

اقترب منها قائلاً: «ابقي معي يا طفلتي، وسأجعلك تجتازين كل هذا».

رأت نفسها تصدقه. وبدأ ذعرها يتبدد، وعندما وصلا إلى الفندق الفخم حيث قاعة الرقص، بدأت الكاميرات تعمل حالما أخرجت قدمها العالية الكعب من سيارة الليموزين المستأجرة لهذه المناسبة.

بذلت فرانسيسكا جهدها كيلا تجفل وتخفي عينيها من وهج كاميرات التصوير، وكيلا تعبس. وهمس كونراد في أذنها: «تماسكي، فأنا أعرف كيف أتعامل مع هذا».

بقي بجانبها، وصعدا معاً الدرجات المنخفضة وهو يوزع ابتساماته على الكاميرات حوله. وتصاعدت الأصوات (أنظري إلى هذه الناحية، يا عزيزتي) (امنحينا ابتسامة) (من صنع ثوبك؟)

رفع يده يطلب منهم السكوت فهمدت الأصوات.

قال: «أشكركم لاهتمامكم بشأننا، لكننا، أنا والآنسة هيلير، هنا الليلة، لمناصرة تمويل مستشفيات مونتاسورو. هذه هي القصة الحقيقة، وهذا ما نحن ملتزمان به حقاً. أليس كذلك يا حبيبتي؟».

ونظر في عينيها باسماً.

أحب المصورون ذلك، وهذا طبيعي، إنها الصورة التي كانوا يحاولون الحصول عليها منذ أدركوا فرانسيسكا هاربة من الأمير كونراد والدموع على خديها، ووجدت فرانسيسكا نفسها تلتصق بكونراد.

وإذا به يستدير نحو المصورين الذين كانوا يصيحون طالبين قبلة ويهز رأسه باسماً: «آسف، يا شباب، هذا عمل يلزمه انفراد تام».

تبع ذلك صياح بالموافقة، ثم همس في أذنها: «ابتسامة سعيدة أخيرة لما حولك ثم نخرج من هنا.».

لم يكن عليهما أن يضعا حداً لذلك. فقد كان مستخدمو الفندق متدربين تماماً على ذلك، هذا إلى أن سيارة ليموزين أخرى كانت تقف خلفهما، وهكذا هربا إلى قاعة الرقص بشكل حسن.

قال كونراد: «عمل جيد. لا أحد كان سيفعل ذلك بشكل أفضل. ابقي معي تصبحين أميرة رائعة».

ضحكت فرانسيسكا، لكنها كانت ضحكة جوفاء.

لم يكن لديها وقت للشعور بعدم الكفاءة لذلك، على كل حال، إذ سرعان ما كانت تركع للملكة السابقة انجليكا. كانت قد تدربت على الركوع، ولكن ما يزال عليها أن تركز انتباهها، وعندما نهضت وجدت الملكة السابقة تلبس قفازين طويلين أبيضين، وبدت أظافر فرانسيسكا الحمراء وقحة بالمقارنة.

وتمتمت: «يا لها من غلطة».

لكن كونراد تابع نظرتها ثم ضحك: «زينة أصابعك؟ انسي ذلك، جدتي سيخضر لونها حسداً. فهي، منذ عرفتها، لا تنفك عن قضم أظافرها».

ثم جرّها معه في القاعة. وبين الاستماع إلى الناس الذين كانوا متلهفين للفت انتباه كونراد إليهم، وبين التحدث إلى اناس لم تعرفهم قط من قبل، نسيت شكوكها. لم يسمح لها الوقت بالشعور بأنها زائفة، وعندما جلسا إلى رأس المائدة، كانت تشعر بأنها أمضت نصف حياتها صديقة لكونراد. كان شعبياً بشكل ملحوظ، وليس فقط من ناحية النساء ذوات العيون الملتهبة، كما كانت تخاف.

قالت امرأة فضية الشعر جالسة أمامهما، وهي تميل إلى الأمام تفحص

إليها: «يا له من فتى حبيب! ما أحسن أن نراه وقد نسي سيلڤيا أخيراً».

قطب الرجل الجالس إلى يسار فرانسيسكا وقال: «كونراد رجل حسن، وممتاز في تسجيل الاهتزازات الأرضية. سمعت أنه سيلقي محاضرة في مؤتمر المهندسين الدولي في الخريف».

فسألت فرانسيسكا: «ومن هي سيلڤيا؟».

فقال جارها لا يريد أن يتخلى عن موضوعه: «ومن الشرف الكبير لمن ليس مهندساً، أن يطلبوا إليه ذلك».

فنظرت إلى المرأة فضية الشعر: «سيلڤيا؟».

فتنهدت المرأة: «آه، يا عزيزتي. أظنهم لا يتحدثون عنها، هذا ما كانت الأسرة تدعو زوجته على الدوام، زوجته السابقة الآن، طبعاً، الأميرة «ماري إلينا». لكن أمه كان اسمها الينا ايضاً وبعد أن قُتلت مع أبيه لم يشأ أحد أن يتذكر ذلك. وهكذا نادوها دوماً باسم سيلڤيا».

جمدت فرانسيسكا في مكانها. وقالت بعد فترة بدت لها ساعات طويلة: «آه، زوجته بالطبع».

فصححت لها جارتها بسرعة: «زوجته السابقة».

فقالت: «زوجته السابقة طبعاً».

كيف لم تعلم بذلك؟ كيف لم يخبرها أحد به؟ لا أبوها ولا أمها. وفوق كل شيء، كيف لم يخبرها به كونراد؟ وشعرت وكأن الثلج يغمرها من كل الجهات.

جلست تستمع إلى الخطب الرسمية، مخدرة الجسم. وعندما اعلن فيلكس أن وقت الرقص قد حان، صفّقت كالبقية، وفمها متيبس من الابتسام.

جاء كونراد في الحال، ودعاها باسماً للرقص، وقد بدت عيناه خضراوين.

آه، كان واثقاً منها للغاية، كما رأت فرانسيسكا، وكان هذا شرخاً صغيراً في الثلج الذي يغمرها، وكانت تعلم أنها، إذا ذاب الجليد، ستثور

غضباً، ربما من الأفضل أن لا يذوب الجليد إلا بعد أن يخرجا من هنا إلى مكان منفرد حيث يمكنها قول كل شيء.

دار بها في باحة الرقص، ولا بد أنه أحسّ بالتوتر بادياً على وجهها، لأنه سألها قائلاً: «ماذا حدث؟».

لم تزايلها ابتسامتها: «لا شيء».

فسألها: «هل قال أحد شيئاً يكدرك؟».

يكدرها؟ يا لله! وأجابت: «لا».

فعاد يسألها: «ألم يقل لك أحد شيئاً قذراً عن أبيك؟».

كان أبواها هنا الليلة، جالسين جنباً إلى جنب رغم الجفوة بينهما.

وقالت: «لم يذكر أحد أبي».

فتنفس الصعداء: «حسناً إذن. فلنمرح ونبتهج».

وشعرت بأنها تريد أن تقتله. لكنها وافقت قائلة وهي تصرف بأسنانها: «نعم. فلنمرح».

* * *

قالت فرانسيسكا: «متى ستخبرني عن زوجتك؟».

قال: «ما الذي تتحدثين عنه؟».

أجابت: «سيلڤيا، أليس هذا اسمها؟ متى ستأتي على ذكرها؟».

فقال بفروغ صبر: «آه، سيلڤيا».

قالت وهي تعجب لفروغ صبره: «نعم، زوجتك».

ـ بل زوجتي السابقة.

ـ ما أكثر السوابق في أسرتك. الملك السابق... الملكة السابقة... الزوجة السابقة... أنتم لا تعرفون كيف تتمسكون بالأشياء.

بدا عليه الارتباك: «هذه ليست لباقة».

وافقته بغضب: «لا. ليست لباقة».

ومنحته ابتسامة مشرقة غاضبة. فقال: «وهذا ليس من صفاتك».

ـ آه، بل هي كذلك. فأنا تلك التي تحب أن تكون أمورها واضحة. هل

نسيت؟ وهكذا، أوضح لي أمر سيلفيا. متى، وأين، ولماذا؟ وكم دام الزواج؟

نظر حوله بضيق وقد فارقه هدوؤه: «لا يمكننا أن نتحدث في هذا المكان عن ذلك».

فقالت بحدة: «فلنذهب إذن إلى مكان يمكننا التحدث فيه».

ـ لا بأس إذن.

ـ لا بأس.

وتبادلا النظرات كمتبارزين، ثم خرج بها من باحة الرقص. وهبطا السلالم ومن ثم إلى الشارع، وكان ذلك من المدخل الخلفي للفندق، وسألهما الناطور عما إذا كانا يريدان التاكسي.

أجابه كونراد باقتضاب: «لا».

وأمسك بيدها وركض معها إلى أسفل التلة عابراً الطريق إلى جدار رصاصي اللون. وكان نهر التايمس يعكس النجوم والأنوار المتألقة.

نظرت فرانسيسكا إلى المياه السوداء المتحركة، وشعرت وكأنها على حافة هاوية، واستدارت ناحيته. وقالت: «أخبرني بالحقيقة، يا كونراد».

ارتدّ إليها واتكأ إلى حائط النهر. كان نسيم الربيع يحرك شعره، وبدا غير واعٍ لذلك. داعبت خياشيمها هبة من عطره سرعان ما تبددت كالنسيم، وقال بملل: «ظننت أن الجميع يعلمون».

ـ ليس أنا.

ـ ولماذا لا؟ أنت تعرفين كل شيء.

وتمالك نفسه وتابع يقول بهدوء: «كنا صغيرين جداً، وكانت هي مناسبة.

أجفلت فرانسيسكا خفية. ومنعت نفسها من أن تقول (أكثر مني).

وتابع يقول: «كان أبوها وزير داخلية جدي فيليكس الملك السابق في المنفى، ولنا نفس جدة جدة جدة الجدة، وكانت تعلم ما هو المنتظر وراء قرابتنا هذه».

كان من الكآبة بحيث شعرت فرانسيسكا بالعطف عليه. سألته: «لماذا تزوجتها؟».

ـ أصبحت ولياً للعهد فجأة، فقد كان والداي قد غرقا... أنت تعلمين عن هذا، أليس كذلك؟ كنت ما أزال في الجامعة. ولكن، فجأة، أصبحت شريداً دون وطن. نعم. كان فيليكس وأنجليكا ذكيين، فأنشآ منزلاً هو بين مركز اللاجئين والبلاط الملكي، ولم يكن هذا منزلاً عائلياً، وكنت في العشرين. وبدأ فيليكس يتحدث عن ورثة. وفكرت أنا... في أن الأولاد سينشؤون لي بيتاً مرة أخرى. وكنت غبياً. ولكن، في العشرين، يرى الفتى ما يريد أن يراه.

كان هذا أسوأ مما كانت تتوقع وتمتمت: «الأولاد؟».

ـ آه، لا تقلقي. لم ترد سيلفيا أولاداً.

قال هذا بوحشية ثم سكت فجأة، وتخلل شعره بيده: «آه، وما الفائدة؟ ربما كانت على حق. فأنا كنت أصغر من أن أصلح للأبوة. وكنت أيضاً متزمتاً كثيراً».

لم تستطع فرانسيسكا أن تتصور أن هذا الرجل كان يوماً ما متزمتاً، لكنها رأت أن هذا ليس بالوقت المناسب للحديث عن ذلك. وسألته: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

قال بخشونة: «طلبت الطلاق».

اقتربت فرانسيسكا منه تواسيه بنظراتها المليئة بالشوق، بدون أن تنطق بكلمة.

لم ينظر إليها، بل قال للنهر: «أنا عاشق ماهر.. يمكنني أن أكون عاشقاً ممتازاً أحياناً، لكنني زوج فظيع».

فأمسكت أنفاسها.

التفت إليها ثم قال بصوت متهدج: «تزوجيني. تزوجيني الآن!».

ذهل كونراد. رباه ليس هذا ما كان مفروضاً أن يحصل... ليس هذا ما قرره على الإطلاق. كان يعلم بالضبط إلى أين كان سيأخذها، لقد

استأجر جداه جناحاً في الفندق لقضاء الليلة. وفي الجناح غرفة جلوس مترفة ملأها بالورود مع الخاتم التراثي الذي سبق أن غيّر حجمه ليناسب إصبع فرانسيسكا، لقد وعدها بخطبة حقيقة، وطلب يد تقليدي.

وكان يريد أن تتذكر الوقت الذي طلب فيها يدها، بينما هي تقول: «هل جننت؟».

كان يريدها... أن تتذكر موسيقى وأزهاراً وشموعاً، وليس هذا. وليس وهي غاضبة مجروحة الكرامة، ترتجف بجانبه من البرد وليس من المشاعر التي يوقظها فيها. انتصب واقفاً مستجمعاً شتات نفسه بجهد. كان متلهفاً إلى عناقها. وكان هذا يسبب له ألماً جسدياً، لكنه سيكون أسوأ غلطة يقترفها. وابتعد عنها، وقال بهدوء: «آسف، انسي أنني قلت هذا».

منحته إحدى ابتساماتها المتألقة وكان قد تعلّم أن يخاف هذه الابتسامات: «لا أدري. إنه أمر لا يُنسى».

فقال: «فرانسيسكا».

ـ هذا ما كنت تريده، أليس كذلك؟ أليس هذا ما هو مفروض أن تفعله خطبتك لي؟ أن تمنحني شيئاً للذكرى؟

رآها غاضبة ولم يعرف لماذا.

ـ نعم. لكنني كنت أرجو أن تمتعي نفسك الليلة. ما الخطأ في ذلك؟

قالت وأسنانها تصطك: «الخطبة هي أكثر من مجرد امتاع النفس».

كان سيناقش هذا الأمر معها لولا شعوره بالقلق فقد أخذت ترتجف.

قال نادماً: «أنت بردت. ما كان لي أن أحضرك إلى هنا أبداً».

وخلع سترته السوداء ووضعها على كتفيها. فقفزت، وصدر عنها صوت انزعاج خفيف. ففكر بضجر: آه، لا. أي خطأ سيحدث أكثر من هذا؟

لكنه قال بهدوء: «هيا بنا ندخل».

قالت تطمئنه: «لا. سأكون على ما يرام. دعنا نتمشى».

حدّق إليها محاولاً أن يفلح في قراءة التعبير البادي على وجهها، ولكن

في وهج ضوء مصباح الشارع الغريب، لم ير سوى خط توتر شفتيها وشعر بارتعاشها المستمر. من الطبيعي أن يتعرضا، هما الإثنين، للبرد بقدر الغضب أو... وأجفل لهذه الفكرة: لجرح الكرامة.

فرح لاقتراحها: «لا بأس، سنتمشى قليلاً، إذا شئت، ولكن حالما تشعرين بقدميك باردتين، ندخل إلى الفندق صح؟».

فقالت: «صح».

وأطلقت ضحكة مرتجفة ثم جرّت طرفي سترته حول عنقها، وكان الشارعان الرئيسان خاليين تقريباً، ولم يكن على الرصيف سواهما، ولم تكن فرانسيسكا تنظر، فقد كانت مطأطئة رأسها. ثم قالت: «والآن، أخبرني لماذا تحطم زواجك؟».

ـ لقد أخبرتك...

فنظرت إليه بعينين ملتهبتين ام لعل ذلك من تأثير ضوء الشارع على زجاج نظارتها؟.

وقالت: «لا يمكن أن يكون السبب تزمتك ورغبتك في ولد».

قال بمزيج من الغيظ والقلق: «آه، يا لهذا الذهن المدقق!».

وخطر له فجأة أنها على شفا البكاء، فمال برأسه ناحيتها، لم يكن يحتمل أن يرى فتاته فرانسيسكا تبكي وهي المحاربة القوية. هذا ليس عدلاً.

وقال بصدق: «لا. كان الأمر أكثر من هذا بكثير، لكن الأساس هو أننا كنا صغيرين جداً ولم أكن أفهم ما تريده».

ورددت فرانسيسكا كلمته: «ما تريده؟».

قال برزانة: «أن تكون أميرة، أن تذهب إلى «موناكو». تريد ثيابها من عمل مصمم خاص، وحياة راقية. أرادت أن تكون شخصية مشهورة. لم تشأ أن تكون متزوجة من خبير زلازل لا يذهب إلا إلى أماكن الزلازل».

وسكت لحظة انتهى بعدها إلى القول: «لم تكن تريدني».

اتسعت عيناها خلف نظاراتها: «ولكن ألم تخبرها..؟».

ـ لا، لا، لم أخبرها بشيء، لم أفكر في أنني بحاجة إلى ذلك. فقد كانت

أسرتها تعرفني طوال حياتي، وظننتها تعرف كيف ستكون حياتها معي.

بدا ضجراً حتى لنفسه. كان يظن أن كل هذا انتهى، فما الذي يجعله يبدو وكأنه ما زال مجروحاً من ذلك؟ وما فائدة نبش هذه الأمور القديمة المخيبة للآمال، الآن؟

أخذت تتفحص وجهه: «قلت إنك كنت زوجاً سيئاً».

وتلعثمت وهي تقول: «ولكن كنت عاشقاً جيداً فهل لهذا تركتك؟».

ـ أتعنين أنني كنت غير مخلص؟ لا.

وسكت قليلاً ثم أضاف بصدق: «قالت إنني متزوج بمهنتي أكثر مما كنت متزوجاً بها وأنا أعترف أنني كنت مرتبطاً بعملي جداً. فقد كنت مثلاً أستغرق في عملي في المختبر بحيث كنت أنسى أننا خارجان للعشاء في المطعم. كانت تقول إنني أفضّل أن أتحدث إلى خبراء زلازل آخرين على أن أتحدث إليها».

استوعبت فرانسيسكا ذلك. وأخيراً قالت: «وهل كانت صادقة؟».

شعر بشيء من الضيق، كان قد تعهد لنفسه بألا يعيد نبش هذا الموضوع التعس مرة أخرى، وقال: «ما هذا؟ استنطاق؟».

عادت تقول: «هل كانت صادقة؟».

فتنهد ساخطاً: «رباه! نعم كانت صادقة. سبق أن أخبرتك... بأنني كنت صغيراً على الزواج».

ـ ولماذا تزوجت إذن؟

ما زال صوتها جامداً دون مشاعر وكأنها وكيل قضائي صغير السن يقوم بالإجراءات القانونية، أو قاضي.

وقطب جبينه: هل هي قاضي؟ ولم يجب.

ـ كنت تحبها، أليس كذلك؟

ـ أنا...

فقاطعته: «كنت صغيراً. وكنت قد فقدت والديك، وكانت هي بمثابة التعويض لديك».

أكملت بذلك الصوت الفضي: «كنت تحبها طبعاً».

كان بينهما ذلك الشيء الذي لم تقله والذي هو بثقل الرصاص (بينما أنت لا تحبني). التوى قلبه في صدره. لقد جرح هذه المرأة إلى حد كبير.

وقال دون وعي: «أواه، يا فرانسيسكا».

ـ لا بأس. أردت فقط أن أعلم.

لكنها ابتعدت عنه: «علينا أن نعود الآن فلدينا خطوبة نعلنها».

تملك كونراد الذعر، وقال بعنف: «لا. هذا غير ممكن إذا كنت تعيسة».

التفتت إليه جامدة الوجه، وهذه المرة كانت الابتسامة عبوساً وقالت بأدب: «آه، لا، ولماذا أكون تعيسة؟ أنا أقوم بواجبي نحو مونتاسورو، وأنشر صورة خاتم خطبتي في كل الصحف الشعبية في نفس الوقت. وهو شيء تزهو به أي فتاة».

تملكته صدمة. ما الذي فعله؟ ماذا فعل بها؟

ـ لسنا مضطرين لإعلان أي شيء الليلة، نحن غير ملتزمين.

أحكمت السترة حولها، وقالت بعناد: «بل نحن كذلك. فهذا سيضع تمويل مستشفيات مونتاسورو على الصفحة الأولى من كل صحيفة في البلاد. دعنا ننهي الأمر».

وارتجفت متشنجة: «أرجوك».

ماذا يمكنه أن يفعل؟ وهكذا عاد معها إلى قاعة الرقص.

* * *

شعرت فرانسيسكا وكأنها في كابوس، بطانة سترته على كتفيها منحتها شعوراً بالدفء.

أتراها ظنت أنه سيحبها؟ أتراها ظنت ذلك حقاً؟ يا لها من فتاة مثيرة للشفقة!

كان هذا زواجاً تقليدياً للمصلحة وقد شُرح لها تماماً منذ البداية. حتى أنها كانت هي نفسها البادئة، حين أخبرت أباها بأنها تريد التعرف إلى الأمير

كونراد دوميتيو.

آه، لقد ساهمت في تحطيم نفسها بنفسها، ولا يمكنها أن تلوم أحداً سواها... عدة لقاءات، عشرات من الإتصالات التليفونية المداعبة، وإذا بها تقع في الحب رأساً على عقب.

لا يمكنها أن تلوم كونراد، فقد حدثها بالحقيقة منذ اللحظة التي عرف من تكون، لم يحاول قط أن يدعي أنه يحبها، لم يشأ أن يحطم قلبها. حتى الآن، يحاول هذا الرجل أن يحررها من وعدها.

فلماذا لا تغتنم الفرصة وتهرب كالمجنونة؟ وجرحها الجواب...

لأنني أحبه، وأنا من الغباء بحيث أظن أنني، إذا بقيت معه، فقد يحبني يوماً ما.

نعم، هذا صحيح، وإلا ماذا؟ لأنني أحبه وهو يحتاجني.

وما زالت تسمع ذلك الصوت المتهدّج في أذنيها: (تزوجيني!) إنه عرض زواج من رجل، على حافة الانهيار، ويمد يديه متوسلاً.

ومن هنا كان جوابها، إنه يحتاجها.

حدثت نفسها عابسة، وهي تنظر في مرآة غرفة استراحة السيدات الفاخرة، بأن هذه سخافة، وأن كلامها غير صحيح، فهي لا تحبه. لكنها أمسكت بياقة سترته وأخذت تتشمم رائحته. لم يسبق أن شعرت بمثل الأحاسيس من قبل. فهذا الرجل غير عادي، ويبدو أنه قدرها.

* * *

كان خاتم الخطبة ياقوتة كبيرة مربعة محاطة بالماس وبدا كبيراً على اصبع فرانسيسكا الصغيرة، لكنه بدا متألقاً بجانب تألق قماش ثوبها، والقرطين المتدليين، هدية أبيها الفاخرة لها، اللذين صُمما خاصة ليتلاءما مع الخاتم.

كان مخبرو الصحف مغتبطين، وكذلك الأسرة المالكة ورجال البلاط الذين عرفوا كونراد وهو طفل.

استمرت فرانسيسكا تبتسم حتى آلمها فكها، أما كونراد الذي عادت

سترته إليه، فلم يفارقها. وكان يتجنب الكثير من الأسئلة، ولكن، بالطبع، كان هناك الكثير منها عليها أن تجيب عليها بنفسها.

جاءت إليها جدته، وكان قفازاها ما يزالان ناصعين، وعيناها باردتين. لم تكونا عدائيتين، وإنما حياديتين منتظرتين.

كانت هنا للحكم على عروس ابنها التي اختارها، وسألتها الملكة السابقة دون تمهيد: «هل ستذهبين معه إلى مونتاسورو؟».

أجفلت فرانسيسكا: «حسناً، نعم، بالتأكيد في النهاية».

قالت الملكة: «أعني عندما يأخذ المستشفى المتنقل إلى هناك».

قالت فرانسيسكا: «لم نناقش هذا الأمر بعد..».

قالت الملكة السابقة: «ناقشاه إذن».

تحركت فرانسيسكا بضيق: «شكراً لنصيحتك، ولكن...».

ـ كونراد مثل جده، صادق وذكي ومجدّ في العمل والعلاقة معه كالأحلام.

شهقت فرانسيسكا واحمر وجهها. وتنهدت الملكة السابقة: «المفروض أن يكون جيلكم منطلقاً على سجيته، ولكن إذا كان فيه عيب، فهو تركيزه على هدف واحد. هذا ما لم تفهمه سيلڤيا. تركته يلاحق أماكن الزلازل دون أن تدرك أن هذا يعني أنه ينسى كل شيء عنها طوال شهور كل مرة».

ـ أتظنين أنه سينساني عندما يذهب إلى مونتاسورو؟

ـ أظن أن أمام كونراد تجربة جيدة للغاية، إنه يتضايق من العلاقات الحميمة وإظهار الإلفة.

أخذت فرانسيسكا تفكر في سترته حولها، وفي صوته المتهدج وهو يقول (تزوجيني)! ونظرت إلى حيث كان يقف، كان ظهره إليها، حاني الرأس وهو يستمع إلى رجل أعمال. وعندما شعر بعينيها عليه، نظر إليها وابتسم، والتوى فمها دون وعي منها... ألا يقوم كونراد بحركات أليفة؟ وأجابتها: «أحقاً؟».

فرفعت الجدة حاجبيها: «قد يكون تغيّر. فلا تدعي ذلك يثنيك عن

التقرب منه».

ـ أحقاً؟ ولماذا؟

ـ الأسابيع الأولى من أي خطبة، تكون عادة متأزمة عندما يكون الفريقان سلبيين، وبجانب ذلك...

وبان الدهاء في عينيها: «ألا تريدين أن تذهبي معه؟ إنه طويل أسمر وسيم وكله لك، ألا تريدين أن تري ما يحدث؟».

وانحنت بطريقة ملكية ثم تركتها.

بقيت فرانسيسكا خرساء، وعندما عاد كونراد إلى جانبها رآها كذلك. فسألها باهتمام: «ما الأمر؟».

ـ إنها جدتك...

تابع نظراتها وهو يقول بسرعة: «ما الذي فعلته جدتي الآن؟».

أجابت بغضب: «قالت لي، تقريباً، أن أتقرّب منك بطريقة حميمة قبل أن ترحل».

قهقه ضاحكاً، وعندما استطاع أن يتكلم، قال: «لا بد أنك أسأت الفهم. إن جدتي متزمتة في أمور الزواج».

ـ لا... أنها ليست كذلك. طلبت مني الذهاب معك إلى مونتاسورو و...

فقال مداعباً: «ونتغازل في كل خطوة من الطريق؟».

ـ نعم... أنا...

ثم أدركت ما كانت الملكة السابقة تقوله. إذا كانت متزمتة هكذا فهي تدعوها إلى التقرب منه ولكن بدون أن تتزوجه وتفسد حياته. لكن فرانسيسكا تريد أن يحبها.

كل تلك الثقة الجميلة الذهبية تلاشت في ثانية واحدة، وتملكها الارتباك. وشعرت فرانسيسكا بأعضائها ثقيلة كالرصاص.

وابتسمت له متوترة: «آسفة. شعرت بإرهاق مفاجيء، متى يمكننا... أعني يمكنني أن أعود إلى البيت؟».

ـ يمكننا أن نذهب حين تشائين.

ـ لست مضطراً لتأخذني إلى بيتي بنفسك.

قال بهدوء: «بل سأفعل».

كانت رسالة الجدة واضحة تماماً: ستستمتعين بوقت رائع. لكنه لن يدعك تتقربين إليه، ولن يحبك.

وكان ذلك ما قاله هو نفسه، عاشق ممتاز، وزوج فظيع.

وهي تريده زوجاً... زوجاً حقيقياً يحبها ويرغب فيها. حاولت أن تقول شيئاً... أن تخبره بشعورها.

وطبعاً، رآها كونراد تتراجع على الفور، فقال بملل: «أريحي نفسك، لست مضطرة إلى أن تحاربيني. سآخذك إلى البيت ثم أتركك».

فقالت: «أنا...».

ـ أليس هذا ما تريدينه؟

لم يكن هذا ما تريده. قالت مستوحشة: «نعم».

ـ فلنذهب إذن.

تركها عند باب شقتها، دون أن يقول شيئاً حتى عندما ذهب، وأمضت ليلتها، لأول مرة في حياتها، دون نوم.

عليّ أن أقوم بشيء ما في هذا السبيل. حدثت نفسها بذلك وهي تجلس في مطبخها، منتفخة الأجفان، في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. كيف سأخبره بأنني اقترفت غلطة؟ لقد بدا مجروحاً تماماً، كان ذلك حين تذكرت بقية رسالة جدته لها، ربما كان هناك شيء ما في تلك النصيحة.

وفي ذلك الصباح بالذات، حالما وجدت الوقت مناسباً، اتصلت برقم تليفون كونراد في كمبردج، وتركت له رسالة. وكانت قد راجعتها وراجعتها إلى أن حفظتها تماماً، كانت تعني العالم بالنسبة إليها.

«أول مرة تقابلنا فيها قلت إن بإمكانك أن تتخذ في فريقك عضواً دقيقاً في حساباته مثلي. حسناً، ها هي ذي فرصتك قد أقبلت... أريد أن أذهب معك إلى مونتاسورو».

٨ ـ اميرة الخيال

انطلقا بعد ذلك بستة أسابيع. استطاع الوكلاء أن يجهزوا ثلاثة باصات بمواد الإسعاف الأولي الأساسية وعلاج الطوارىء، ومستشفى متنقلاً. لم تكن فرانسيسكا تحمل رخصة لقيادة أي منها. بعكس كونراد الذي قال لها: «عليك أن تكوني أنت قارئة الخريطة».

قال ذلك بتلك الطريقة الساحرة الهادئة التي أخذ يستعملها معها منذ ليلة الحفلة تلك، وكانت طريقة ودودة، مع أنها أبقتها بعيدة عنه. فقد عاملها بالضبط كما يعامل أي شخص في فريقه هذا.

وكانت جاز قد قالت لها مواسية وهي تساعدها على حزم أمتعتها: «لا تقلقي. إنه يحميك حقاً. فالصحافة ما زالت في أثركما، لا أظنك تريدين صوراً لكما كعاشقين في كل الصحف الشعبية. أليس كذلك؟».

قالت فرانسيسكا بارتياب: «هل هذا ما تظنينه؟ لا أشعر بأنه يفعل ذلك لحمايتي. بل أظنه، بكل بساطة، يدفعني عنه بعيداً».

قالت جاز: «فليكن لك قلب. لدى الرجل قافلة سيجتاز بها نصف القارة، ثم يصعد بها في أكثر الطرق الجبلية وعورة وفظاعة في أوروبا وربما ذهنه مركّز على هذا الأمر أكثر من أي شيء آخر».

عضت فرانسيسكا شفتها: «نعم، طبعاً».

ـ اصبري عليه حالياً حتى يسلّم مواد المستشفى، وبعد ذلك يتحوّل إلى دور أمير العشاق «كازانوفا».

فقالت ولكن دون اقتناع: «نعم».

والواقع أنها كانت تفقد اقتناعها، ولو لم تبذل جاز جهدها في تنسيق الأمور لتراجعت فرانسيسكا ربما عن وعدها. لكن جاز وجدت روائية ناشئة تحل مكان فرانسيسكا مؤقتاً في المكتبة أثناء رحلتها. وبجانب ذلك، كان كونراد قد أنذر كل شخص بأن يسافر خفيفاً، وكانت فرانسيسكا قد عملت بنصيحة جاز، الخبيرة في حقائب الظهر فإذا النتيجة أن حقيبتها كانت معجزة في توفير المساحة بشكل رائع.

وقالت جاز باستمتاع: «اغسلي ما تستطيعين كلما وجدت فرصة لذلك ولا تضيفي شيئاً إلى الحقيبة إلا بعد أن تتخلصي من شيء فيها أولاً».

وقبل أن تذهب قدمت لها أمها اللايدي أن ثوباً طويلاً أسود.

وقالت جاز: «هذا ينفعك لأي شيء حتى لحضور عشاء رسمي، اشتري بعض المجوهرات من هناك لتلبسيها معه، وهكذا تساعدين الاقتصاد الوطني وتبدين وكأنك تبذلين مجهوداً في سبيل ذلك».

أما والدها فقد أهداها سكيناً من النوع الذي يستعمله الجيش السويسري، وقائمة بأسماء أشخاص نافعين يمكنها الاتصال بهم.

أما الملك السابق فيليكس فقد قدم إليها كتاب جمل باللغة المونتاسورية، ومباركته. وبدا كأن صوته اختنق وهو يقول ذلك. كما أعطتها زوجته نصيحة هي: «لا يمكنك، وأنت تذهبين في هذه الرحلة الاستكشافية، أن تتصرفي وكأنك انسان عادي مجهول، لأن أعين الناس ستكون عليك».

فقالت فرانسيسكا وقد أتعبها عداء المرأة لها: «حسناً، إنها عيناك أنت، على كل حال».

قالت الجدة: «كونراد حفيدي وأنا أريد أن يكون سعيداً».

غضبت فرانسيسكا: «أتظنينني لا أريد ذلك؟».

ضمّت الملكة السابقة شفتيها: «سنرى».

ولكن عندما خرجت فرانسيسكا، سمحت الملكة السابقة لنفسها بابتسامة عريضة لا تليق بالملوك. وهكذا التحقت فرانسيسكا بالقافلة.

عاملها كونراد كواحد من الفتيان. طوال الطريق عبر أوروبا، رأته كما لم تره من قبل قط. كانت العجلات تنفجر فيستبدلها بنفسه. يتشاجر السائق مع دليل القافلة، فيقنعهما بإقامة هدنة بينهما.

ثم دخلوا مونتاسورو، فكان الأمر أسوأ، الطرقات مسدودة، فكان عليه أن يجد طريقه حولها. مناظر البراري الرائعة لم تتناسب تماماً مع خريطتهم. أخذ كونراد يجول في الحقول مفتشاً عن دليل محلي، وطوال الوقت كان كفوءاً واسع الحيلة... ديبلوماسياً وهادئاً للغاية.

بدأت فرانسيسكا ترى ما اشتبهت فيه من قبل وهو أن كونراد رجل جاد للغاية. فامتلأ قلبها زهواً أما عقلها فكان يسألها في الوقت نفسه ألم تفكري بعد لماذا يهتم رجل كهذا بامرأة لم تستقر في عمل قط اكثر من ستة أشهر؟

وكان الجواب واضحاً، طبعاً، فهي ابنة أغنى رجل في مونتاسورو.

وفي نفس الوقت، اتبعت نصيحة جاز حرفياً حتى أنها ظفرت من كونراد بثناء مختصر قائلاً: «كنت أعلم أنك ستكونين نافعة».

كان ذلك وهما يستعدان لتناول العشاء على مائدة خشبية خارج فندق في قرية في الجبال، ذات ليلة.

فقالت فرانسيسكا: «نافعة... آه، إنه مديح حقيقي».

التمعت عيناه راضياً: «ليس لديك فكرة عن مبلغ ما أنت عليه من صواب».

قالت مازحة: «نافعة وعلى صواب؟ سيتورّم رأسي».

لامس خدها، إنها أول مرة يضع يده عليها منذ تعارفهما، وقال برقة زائدة: «ليس أنت من يحصل له ذلك».

ووقفت جامدة. ولكن جاء من يستدعيه ليعطي قراره لرجلين كانا يتأملان الخريطة.

هزت رأسها وذهبت لتجلس مستندة إلى جدار المبنى ذي الطابق الواحد. حدثت نفسها بأن تصبر على ذلك، فالرجل هو قائد حملة معقدة. وفي كل مكان كانوا بحاجة إلى إرشاداته، واتصالاتهما ببعضهما البعض لن

تكون أكثر من كلمات سريعة مبتورة إلى أن يسلموا هذه الشاحنات.

رفعت وجهها تنظر إلى النجوم. كانت متألقة قريبة بشكل محيّر في أجواء الجبال العالية. ما أجمل أن يكون كونراد معها ينظر مثلها إلى تلك النجوم! أن تكون نافعة هو شيء حسن، وأن تجعله يعترف بأنها على صواب احياناً، هو شيء حسن، لكن فرانسيسكا لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تتمنى لو تبهره.. ولو قليلاً!

ما لبثت أن حدثت نفسها بأن تكون واقعية. إنها فتاة تملك مفتاحاً للعلاقات العامة ولكثير من المتبرعين الأغنياء. إنه يكنّ لك إعزازاً وتقديراً أيضاً، وهذا أكثر كثيراً مما يتمتع به معظم الناس... لكنني أريده أن يحبني! هذا في أحلامك فقط.

نهضت فرانسيسكا واقفة، وشغلت نفسها عن هذه الأفكار إلى أن كادت تنهار إرهاقاً.

وأخيراً وصلوا إلى اكبر مدينة في الجبال حيث سيقام المستشفى. لم تكن أكثر من قرية كبيرة ذات سوق مربع ومجموعة من المنازل حوله. جاء لاستقبالهما طبيبان محليان، فأفسح لهما الرجال الطريق. وكانا في منتهى اللهفة للحصول على المعدات الجديدة.

لم تكد تبرد محركات الشاحنات حتى كانا يقومان بعملية «الزائدة الدودية» لصبي. هذا ما كتبه كونراد في تسجيله للأحداث اليومية.

كان يجلس تحت مظلة في أحد المقاهي الثلاثة القائمة في الشارع الواسع المشجر. وقرأت فرانسيسكا ما يكتب من فوق كتفه. فسألته وهي تجلس: «هل تحتفظ دوماً بمذكرات يومية؟».

فرفع بصره إليها: «لا. في الرحلات فقط».

وأطبق الدفتر ودفعه عنه بعيداً.

ـ كان هذا في الأساس نافعاً في تنظيم الأحداث، فالواحد منا لا يتذكر دوماً تتابع الأحداث بدقة وما لبثت أن أخذت بالكتابة عن انطباعاتي الخاصة، عن القليل منها فقط للتسلية.

استند إلى الخلف في كرسيه. كان يبدو كسولاً سمّرته الشمس، وجذاباً للغاية.

ذكّرت فرانسيسكا نفسها بأنها لن تسمح بأن ينشغل بالها إلا بعد انتهاء الرحلة، فسألته بصوت حاولت أن تجعله مؤدباً: «هل هكذا كان كتابك عن البركان؟».

ـ نعم، لقد جاء كله من دفتر المذكرات لكنني وضعت التعليقات فقط تحت الصور.

أومأت: «وعندما قلت إنك ألّفته لأجل المال؟».

نظر إلى الشاحنة التي تجر المستشفى عبر السوق، وأجاب: «اشتريت بالمبلغ الذي دُفع لي مقدماً، جهاز التصوير بالأشعة المتنقل. وهو يبقى للتذكر بأن الأسرة المالكة يمكنها أن تقدم شيئاً».

ـ هل ذهب كل شيء لتمويل المستشفى؟ فهمت.

فهز رأسه: «أنا لا أهتم بالمال في الحقيقة فأنت فهمت الأمر خطأ. لم أهتم بذلك قط. وإنما أحب القيام بالأشياء».

استوعبت فرانسيسكا ذلك، ثم قالت: «نعم. يمكنني أن أرى ذلك. ولكن لأجل مونتاسورو...».

فقال بهدوء: «سأقوم بالكثير لأجل بلادي. لكنني لن أضع نفسي في المزاد العلني».

تذكرت فرانسيسكا حين قال لجدته (لا أريد أن أضحي بنفسي لأجل أحد).

ربما يريدها لأكثر من إرثها واتصالاتها العملية، ولكن ما الذي سيجعلها تعرف الحقيقة؟ وتأملت وجهه، فقابل نظراتها بهدوء. عضت شفتها وقالت: «لا تريد ذلك؟ ولكن ماذا عن ترشيح جدك نفسه للانتخابات؟ إنك ستفعل الكثير لأجل جدك، أليس كذلك؟».

مال على المنضدة وسألها باهتمام.

ـ لماذا تعضين شفتك؟ ستتقرح.

قفزت فرانسيسكا وقلبها يخفق بعنف، وشعرت وكأنها استحالت حجراً. وعندما انفرجت شفتاها، تغيرت عينا كونراد وبدا فيهما العزم، فمال نحوها وقد تسارعت أنفاسه.

وإذا بصوت من الساحة، فتمتم غاضباً: «تباً لذلك».

برزت مجموعة رجال من خلف المنعطف. رجال في بذلات، وكاميرات تصوير، ورجل يسير إلى الخلف حاملاً، مع شخص أمامه، شيئاً غامضاً فوق الرؤوس. وقال كونراد بسأم: «التلفزيون. كنت أتساءل متى يبدأ السياسيون بالعمل».

ووقف وعيناه على المجموعة وهي تتقدم.

نظرت فرانسيسكا إليه. لم تكن تفكر في ستر ما يبدو على وجهها من تعبير. إن نظر إليها فسيرى قلبها في عينيها، وسيرى فيهما كل شيء... ارتباكها ولهفتها إليه ورجاءها العنيف، وعدم تصديقها.

نظر إليها قائلاً: «آسف. أنا مضطر إلى...».

وجمد مكانه: «فرانسيسكا!».

أجفلت: «ماذا؟».

قال بصوت متهدج: «لا تنظري إليّ بهذا الشكل».

ودار حول المنضدة بحيث حجبها جسمه عن الشارع. وعندما رأى انعكاس مشاعرها بادية على وجهها، قال بضحكة منفعلة: «تمسكي بهذا الشعور».

كان القادمون الجدد قد جاؤوا بطائرة هليكوبتر مع حاشية ضخمة. ألقى السياسيون أحاديث، لكن الصحافة كانت مهتمة بكونراد ولي العهد. أحدقوا به بأسئلتهم وتعليقاتهم وطلباتهم. ثم أرادوا أن يروا فرانسيسكا.

السياسيون حيوها والموظفون الرسميون طلبوا نصيحتها، ورجال البلاد المحترمون طلبوا دعمها للمؤسسات الخيرية. الأمهات وضعن أطفالهن بين ذراعيها، والبنات الصغيرات قدمن لها باقات الزهر وهن راكعات. واستمر ذلك أياماً.

وبما أنها كانت نافعة جداً للفريق، أصبحت أشبه بالفراشة التي لا تستقر في مكان واحد، كما قالت خفية لكونراد. وقد جعلها هذا تشعر بالضيق.

قالت له بكآبة: «قالت لي جاز إنني سأمضي وقتي بين الأطفال وباقات الزهور لكنني لم أصدقها. لكنها كانت على صواب، اليس كذلك؟».

قال ضاحكاً: «عملك ممتاز».

ـ لكنني أحب جداً أن أذهب معك إلى القرية في باص الإسعافات الأولية.

قال بدهشة: «أتحبين ذلك؟».

كانا يتمشيان خارج الجدران العتيقة عند مغيب الشمس. كان الحر طوال النهار يضغط عليهما، وكانت فرانسيسكا تلجأ إلى ظلال البيوت كلما استطاعت. أما كونراد فكان يذهب إلى القرية مع فريق الإسعاف الأولي.

لأول مرة منذ أيام هما وحدهما.

قال لفرانسيسكا وهما يتوقفان لينظرا إلى المنظر الرائع: «علينا أن نذهب إلى حفلة استقبال كبرى في «ڤيلناغراد»، لقد وعدتهم بجلسة هناك يلقون فيها ما يريدون من أسئلة وياخذون ما يشاؤون من الصور. وهكذا سيتركوننا، هذين اليومين القادمين، وشأننا، وفي هذه الأثناء نسلم آخر باص للإسعاف الأولي».

لم يعجبها ذلك، وقالت بقلق: «هل سيكون ذلك مؤتمراً صحافياً كبيراً؟».

طمأنها قائلاً: «لا تقلقي على هذا».

قالت بهزل: «أعرف هذا. سألتصق بك وستبقى أنت معي إلى النهاية صحيح؟».

أجابها بتصميم: «على الدوام».

شعرت بالاطمئنان: «كونراد هل أنت واثق؟».

فقال بعدم اهتمام: «إذا كنت أستطيع التعامل مع فيليكس، يمكنني

التعامل مع مجموعة من كتّاب المواضيع التافهة».

صدقته فرانسيسكا. وتمتمت بمكر: «ما أجمل أن أكون برفقة خبير!».

أكدّ لها وهو يميل نحوها: «الأفضل أن تصدقي ذلك».

لكنها عادت تتمتم: «حذار. قد تكون عقدت هدنة مع الصحافيين، إنما هناك صبي يتسلق ذلك المرتفع، وفي أية لحظة سيندفع نحونا بباقة زهر أو دفتر أوتوغراف».

توقف كونراد ونظر إليها وقال بفظاظة: «تباً لكل الأولاد».

إن وجودها قربه يؤثر فيه ويثير فيه مشاعر جارفة، غابت الشمس وراء الأفق، مرسلة أشعتها ذات اللون المشمشي المحترق، محيلة الوادي إلى ذهب.

وصل الصبي، كما تنبأت، كان في حوالى الثامنة، وكان يحمل بيده كاميرا رخيصة.

ابتعد كونراد عنها مكرهاً، ثم قال شيئاً باللغة المونتاسورية بحدة. هز الصبي كتفيه ولم يتزحزح من مكانه.

سألته فرانسيسكا: «ماذا قلت له؟».

ـ قلت له أما كان ينبغي أن يكون نائماً الآن؟

وإذا الصبي المتسكع قادر على التحدث بالإنكليزية كما يبدو، إذ قال: «أريد صورة، وسأدفع لكم فيها ثمناً جيداً جداً».

مضت لحظة ظنت فيها فرانسيسكا أن كونراد سينفجر، ثم جلس على صخرة، ووضع رأسه بين يديه وأخذ يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه.

لم تستطع فرانسيسكا أن تمنع نفسها من القول للصبي المتسكع: «خذ له صورة الآن وسأشتري منك الفيلم كله».

وفي النهاية استعمل الصبي الفيلم بأكمله في تصوير ولي العهد وهو يطارد حبيبته.

وقالت للصبي وهي لا تتمالك نفسها من الضحك: «أحضر لي الصور غداً إلى «تاڤيرنا سان سيمون» فستستحق هذه أي ثمن».

لكن الصبي تأخر. وباص الإسعاف الأولي تحرّك باكراً، وهكذا لم تستلم الصور قبل ذهابهم في آخر رحلة للتسليم.

كانت السحب المحيطة بالجبال الليلة الماضية نذير شؤم فقد هبّت العاصفة قبل أن يقطعا نصف الطريق إلى القرية العالية. وأغرقت الأمطار الطريق.

كانت فرانسيسكا مع آخرين، في سيارة جيب. وكانوا قد تأخروا إلى الخلف كي يفسحوا للباص الثقيل حرية التحرك. ولا بد أنه كان بينهما ربع ميل حين رأوا الباص ينزلق في الطريق.

وإذ كانت تجلس قرب السائق في «الجيب»، فقد كانت أول من رأى ذلك، فصرخت بالرغم عنها، ورأت كونراد يكافح بالعجلة الضخمة بينما أخذ الباص ينزلق ثم يثب كسفينة في بحر هائج.

أوقف سائقها سيارته، ثم أخذوا ينظرون عاجزين عن القيام بشيء.

شبكت يديها لكي تمنعهما من الارتجاف. وحدثت نفسها بأن بإمكانه أن يحمي نفسه، فإذا استسلمت للرعب فلن تفعل سوى تحويل انتباهه.

وما لبث الباص أن أخذ يتوقف بشكل خطر قريباً من هوة عميقة. وما ان توقف عن الاهتزاز، حتى اندفعت فرانسيسكا من سيارة الجيب وركضت صاعدة المنحدر، كانت واثقة تقريباً من أن واحدة على الأقل من عجلات الباص على الحافة.

كانت الحصى تقرقع ناحية الجبل، وقد زحزحها من مكانها انهمار المطر. ولن يطول الوقت قبل أن تتبع الصخور الحصى.. بهذا أخذت فرانسيسكا تفكر وقد تندت راحتاها بالعرق رعباً.

انفتح باب الباص البعيد عن الرصيف. ونزل الطبيب والممرضة والموظف الذين مع كونراد، نزلوا بحذر إلى الطريق. ثم انضمت إليهم فرانسيسكا. وقال الطبيب: «سيحاول أن يجعل الباص يقفز إلى الخلف من الطريق. أما نحن فسنحاول تثبيته بسرعة بشيء ما.. ماذا لديكم في الصندوق الخلفي؟».

ولحسن الحظ كانت هناك قطع من الحبال المستعملة في الصناعة.. أخذوا جميعاً يعملون بسرعة، فربطوا الباص إلى أشجار عتيقة تاركين الحبال غير مشدودة جيداً لكي تشتد حين يتحرك الباص، ووصل الطبيب أطول حبل بصخرة هناك حول الانحناء. وجاءت فرانسيسكا بوسائد مقاعد الباص الجديدة فوضعتها بين الحبل والصخرة كيلا تنشر الحبل فتقطعه. وعادوا يجتمعون أمام الباص مرة أخرى.

قال الطبيب منادياً: «ماذا لو قطرنا «الجيب» بالباص ليجره؟».

قال كونراد: «لا أريد أن أجازف».

دفعت فرانسيسكا شعرها المبتل عن عينيها وقالت عابسة: «بل جازف، وسأسوق أنا «الجيب»».

قال كونراد: «فرانسيسكا! لا».

نظرت إليه. كانت تقطر ماء، وشعرها ملتصق برأسها. لم تهتم، ربما هذه آخر فرصة لها. عليها أن تخبره، اضطرت إلى أن تصيح: «أنا أحبك».

نفضت شعرها المتكتل إلى الخلف، ورفعت ذقنها بعزم: «ولن أدعك تسقط من فوق هذا الجبل ما دام بإمكاني ذلك».

نظر كونراد إليها لحظة طويلة. قابلت عينيه مباشرة بينما المطر يصفع زجاج نظاراتها ثم يسيل على وجنتيها، ودن اهتمام بالآخرين، أشارت إليه بشفتيها قائلة بصمت: «أحبك».

رأته يتقبّل ذلك بترحيب، ثم أخذ يضحك، يضحك فحيّرها...

إنه يحبني... وانزاح من قلبها ثقل كبير. ونادى يجيبها: «لا بأس. عند الإشارة، يا دكتور».

بدا وكأنه تلميذ. وكأنه يستمتع بهذه المعركة مع عناصر الطبيعة.

ركضت عائدة إلى السيارة الجيب. تفحصت الآلات غير المألوفة لديها، بلحظة، وفجأة، وببرودة الثلج، أخذت تستوعب كل التفاصيل بسرعة ودقة. ربما لأنها تعلم أن هذه فرصتها الوحيدة. وربما أيضاً لأنها دقيقة بطبعها إلى حد ممل...

أدارت المحرك، وأشارت بيدها من النافذة إلى الطبيب بأنها جاهزة. كانت مركزة مشاعرها على الطبيب، متنظرة إشارته لها بالتحرك.

وإذا بكونراد يدير محرك الباص. فسقطت يد الطبيب، وأدار كونراد عجلة القيادة بجهد بالغ فقذفت فرانسيسكا بالجيب في الاتجاه المعاكس. شعرت بالباص ينجذب فزادت إعطاء البنزين بحذر، ليس الوقت مناسباً للاندفاع بذعر طلباً للنجاة.

وتصاعد صرير هائل من المعدن وأخذ كونراد يصارع عجلة القيادة.

تصاعد صوت انسحاق ثم تمايل الباص عائداً إلى الطريق. وبدأت سرعة الجيب تزداد فخففت فرانسيسكا البنزين على الفور. ثم أوقفت «الجيب» وسط الطريق بهدوء.

جلست فيه تتنفس بصعوبة. كل الخطر الذي محته من ذهنها عاد فاكتسحها، وأخذت ترتجف.

قفز كونراد من الباص، وعاد إليها راكضاً، وفي ثوانٍ جعل المطر قميصه شفافاً، ولم يبد عليه أنه لاحظ ذلك. فقد فتح الباب بعنف، هاتفاً: «فرانسيسكا... حبيبتي... حبيبتي».

جذبها من السيارة إلى الخارج وهو يصرخ: «أنت بخير، يا إلهي، أنت بخير! الحمد لله لأنك بخير».

قال هذا بلهفة وكانت ذراعاه تمسكان بها وكأنه خائف من أن تضيع من أمامه.

قالت تعنفه: «إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى».

ثم أخذت تنتشج باكية. فهتف بها: «لا، لا يا حبيبتي، لا تبكي، لا شيء يستوجب البكاء، أنت بخير، أنا بخير، والباص اللعين بخير. وسنكون جميعاً بأحسن حال».

لكن الدموع استمرت تتدفق.

نظر حوله عاجزاً: «ليس لديّ ما أمسح به دموعك».

اختنقت فرانسيسكا بالضحك بالرغم عنها. وقالت: «في هذا المطر؟

من يمكنه أن يجفف شيئاً؟».

تمالكت نفسها بشكل ملحوظ. فنظر إليها بحذر، وسألها: «هل أنت بخير؟ علينا أن نتابع سيرنا كما تعلمين».

أومأت: «نعم، أنا بأحسن حال. دعنا ننتهي من تسليم ذلك الباص».

وعندما عادت تجلس في الجيب بجانب السائق، لم تلحظ دموعها التي جفت على خديها، وهي تفكر في أنه يحبها، محدثة نفسها ما بين الخجل والسعادة: إنه حقاً يحبني.

* * *

اكملوا بقية الرحلة ببطء شديد. حتى بعد أن هدأ الرعد وتوقف المطر، بقيت الطرق لزجة.

لم تهتم فرانسيسكا. فقد نجوا، وكونراد يحبها. والمشاهد المتألقة بعد أن غسلها المطر هي أجمل من كل ما رأته في حياتها، ولم تشعر قط من قبل بمثل هذه السعادة.

في القرية القائمة في قمة الجبل، جاء الجميع لتحيتهما، وكان احتفالاً كبيراً. كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة وكثير من الرايات. وحتى مكان وقوف باص الاسعاف الأولي كان مخططاً بخطوط خضراء وذهبية.

قالت: «أريد مكاناً أغير فيه ملابسي، وبسرعة».

أومأ السائق وقاد الجيب حول منعطف إلى منزل من طابق واحد ذي سطح صيني الطراز.

نزلت فرانسيسكا من السيارة واتجهت إلى الباب وحقيبتها على كتفها. لم يكن هناك سوى امرأة أخذتها إلى غرفة صغيرة فيها مرحاض ومرآة مكسورة.

استغرق منها ارتداء الثوب الأسود وتمشيط شعرها وتنظيف وجهها ويديها، ست دقائق. أخيراً سحبت نفساً عميقاً، ورسمت على شفتيها ما ظنته ابتسامة الأميرة، ثم خرجت لتلتقي بالفرقة الموسيقية.

رآها كونراد حالما جاءت من خلف الزاوية وأدركت أنه كان يفتش

بعينيه عنها في ساحة القرية. فعمّ الدفء قلبها فذهبت إليه.

تقابلا دون أن يحوّل أي منهما عينيه عن عيني الآخر، كان ذلك أشبه بالمغناطيس. لقد عثر الواحد منهما على الآخر لأن ذلك كان لا مناص منه. وابتسم في عينيها وقال: «تبدين رائعة».

قالت برزانة: «شكراً. وأنت أيضاً».

وكان هذا صحيحاً أيضاً، فالقميص الرطب قد أبرز عضلاته التي كانت البذلة تخفيها عادة.

قالت: «لا بد أن الأخطار تلائمك».

وبشوق بالغ همس لها: «أنت تلائمينني».

احمر وجهها وشعرت بالبهجة والتسلية. في هذا الوقت التقط لهما شخص ما صورة فوتوغرافية، وعزفت الفرقة النشيد الوطني. ومن ثم بدأ الاحتفال بالترحيب بهما.

استغرق هذا وقتاً طويلاً فكل شخص أراد أن يلقي كلمة، وبعضها كانت طويلة مملة.

فهمت أنهم شاكرون لهذه المساعدة الطبية، شاكرون الانتباه العالمي لهم، مسرورون بولي العهد كونراد وأصدقائه. وتصاعد تصفيق طويل. وجاءت فتاة صغيرة بباقة زهر وشرائط في شعرها، فكادت تسقط عن المنبر الخشبي المهتز لولا أن كونراد قبض من الخلف على ثوب الحفلة المطرز الذي ترتديه، بينما ركعت فرانسيسكا على ركبة واحدة تأخذ منها الباقة.

عند ذلك رأت أصابع الطفلة، كان هناك من اعطاها شوكولا، يا للمصيبة! كان الثوب ناصع البياض ذا تطريز يدوي رائع الاتقان، كان واضحاً أنه من صنع أم محبة أو جدّة، وهو الآن معرض للاتساخ.

تملك فرانسيسكا الاهتمام، ودون تفكير، أمسكت بمعصم الطفلة، ثم أخرجت واحدة من فوط الأطفال مسحت بها الشوكولاتة عن يد الصغيرة.

وقفت الصغيرة جامدة تنظر إلى العملية باهتمام خفيف لكن كلمة (آهه) تصاعدت من المجموعة الصغيرة في صوت واحد.

أجفلت فرانسيسكا. ثم ابتسمت وهي تمد يدها لتأخذ باقة الأزهار.

لكن الطفلة قررت ألا تعطيها الباقة، وبدأ شجار صغير، وإذا بثلاثة أشخاص يظهرون إلى جانب المنبر، يهمسون للطفلة بإرشادات تخلت الطفلة بعدها مكرهة عن الزهور. جادلت لحظة، ثم نظرت إلى مشيريها بتردد، ثم إذا بها تطبع قبلة خاطفة على وجنة فرانسيسكا المجفلة.

وكادت فرانسيسكا تفقد توازنها من الدهشة. وهمس لها الأشخاص الثلاثة بالمونتاسورية: «لا، بل اركعي».

قال كونراد بسرعة: «لا تدعوها تفعل ذلك، فسترتبك».

وبسرعة الصقر، حمل الفتاة الصغيرة، ورفعها بين يديه ليناولها إلى أسرتها المنتظرة. كانت القبلة التي منحته إياها أكثر حماسة بكثير كما لاحظت فرانسيسكا.

وتصاعد الضحك مع بعض التصفيق.

قال كونراد ضاحكاً في عينيها: «ما كان لك أن تكوني جميلة إلى هذا الحد يا أميرة الخيال».

ولكن كان في صوته أكثر من الضحك... كان فيه طلب خفي... يقول: تعالي معي. تعالي معي إلى ما وراء الأفق... إلى مشاعر لا يمكن تصوّرها.

وقبل يدها.

أنا في غاية السعادة، والليلة في حفلة الرقص التي أقيمت ليوم مولده سيعلم مبلغ حبي له. وسأعرف ماذا أعني له!

عندما ذهبا إلى مدينة الجبل الصغيرة لكي يحضرا أمتعتهما، قال كونراد: «هناك حفلة استقبال لنا في «ڤيلناغراد» الليلة، وعلينا أن نذهب».

قال ذلك بعد أن تحدث إلى بعض الرجال في التليفون الخليوي.

كانت فرانسيسكا، حينذاك، مستعدة لأن تذهب معه إلى نهاية العالم. ولكن لغتها المونتاسورية البدائية خذلتها وهكذا أمضى كونراد الليل في اجتماع خاص. على الأقل هذا ما افترضته.

بقيت جالسة وقتاً طويلاً تنتظره. وكانت قد تمكنت من الحصول على الصور التي التقطها لهما الصبي الليلة الماضية. وهكذا أخرجت مصباحاً إلى شرفتها وأخذت تتصفحها.

كونراد يضحك. كونراد يطاردها. كونراد يرشقها بالعشب.

كونراد يحب؟

كانت واثقة من ذلك من الطريقة التي نظر فيها إليها في طريق الجبل.

ولكن عندما بزغ القمر وهمدت الضجة في المدينة البعيدة أولاً ثم صوت صراصير الأجمات ثانياً، أخذت ثقتها بذلك تتناقص شيئاً فشيئاً.

وفي اليوم التالي، رغم أن كونراد ابتسم لها عبر قاعة الاستقبال، لم يأت إلى جانبها. كان مرتدياً بذلته مرة أخرى ويحيط به رجال يحملون تليفونات خليوية. وابتسمت له، ولكن كان في داخلها شيء من الصقيع. تمسكت بثقتها بما حدث في ذلك الطريق المغرق بالمياه أثناء العاصفة الرعدية. لكن الأمر أصبح أسوأ، فهو مشغول، لأنه يمهّد الطريق لعودة جده فيليكس إلى انتخابات الرئاسة.

ثم سأل إن كان بإمكانه القدوم لرؤيتها، كان نهاية يوم برنامج عمل حافل، وكانت قد رأت المتحف الوطني، قابلت موظفين من وزارة الثقافة وزارت مدرسة حديثة، رأت عرضاً رياضياً، وجالت في انحاء كروم عنب، وأرهقها استحسان وتقدير أشياء لا تعني لها شيئاً، وآلمتها قدماها.

لكنها قفزت حالما انفتح الباب، وقلبها في عينيها.

دخل كونراد ثم قال بسرعة: «لم أتأخر».

كان قد أحضر لوح الكتابة الخاص به. أتراه يضع قائمة بالأمور التي سيناقشها معها؟ وتابع يقول: «يريدون منا أن نتحدث إلى الصحافة. هل نقيم الزواج هنا؟ هل هذا يناسبك؟».

فهتفت ذاهلة: «ماذا؟».

فقال: «إنهم يريدون استعراضاً جيداً يُعرض حول العالم، ويعطي صورة جيدة وينفع في السياحة».

فجأة، شعرت بالصقيع في قلبها يكبر ويعظم. وقالت له بهدوء: «هل هذا ما تريده؟».

قال غائب الذهن تقريباً: «دخل الدولة بحاجة إليه. إنه يشجع الخدمات».

امتد الصقيع إلى مكان ما خلف عينيها، وتساءلت عما إذا كانت ستستطيع إغماضهما مرة أخرى. وقالت بألم: «كونراد. لا نستطيع أن نتزوج لمجرد تشجيع اقتصاد البلاد».

لم يبدُ عليه أنه فهم: «طبعاً لا. لكنهم سيرحبون بنا حقاً».

ـ علينا أن نتحدث عن ذلك...

ـ وهم يريدون أن يعلموا ما إذا كنا سنعيش هنا. وقد قلت لهم لا. فنحن الاثنين انسانان عاملان. ولا تستطيع البلاد أن تطيق ملوكاً لا يعملون. لكننا سننشيء بيتاً هنا، وسأعلّم فترة في السنة في الجامعة. أترين هذا معقولاً؟

بدا مشغولاً جداً، وعملياً للغاية، ومنطقياً تماماً. إنه يحوّل حياتهما الخاصة إلى بنود على التقويم الوطني، فلم يلاحظ حتى أنهما فقدا القدرة على التعبير عن مشاعرهما.

قالت ببساطة: «لقد أخبرتني جدتك بأنك جاف غير ودود».

رفع بصره عن قائمته: «ماذا؟».

ـ لا تشغل بالك، تجاوز عن ذلك.

ونظر إلى ساعته: «والآن، بالنسبة إلى مهنتك...».

قاطعته ساخرة: «أنا لست مؤهلة للتدريس في الجامعة».

فضحك: «ربما هذا صحيح، ولكن بإمكانك أن تديري روضة أطفال، كما بدا من الدور الذي مثلته أمس».

آلمها ذلك إلى حد بقيت لحظة لا تستطيع أن تتكلم. وعندما استطاعت، قالت: «آه، إنني أمثل جيداً أمام الكاميرا».

قطب جبينه: «آسف، لم أفهم؟».

نهضت إلى درج فتحته وأخرجت الصور التي التقطها الصبي، قائلة: «ربما عليك أن تعرض هذه، فهي تنفع في إعطاء صورة. ألا تظن ذلك؟ فكر في ما سيفعل هذا للدخل الوطني».

أخذ كونراد يتصفح الصور: «فهمت ما تعنينه».

بدأت فرانسيسكا ترتجف، وقالت بمرارة: «آه، أنا نافعة حقاً».

مرّ على جبينه بيده: «إذا كانت لديك وجهة نظر، فاعرضيها يا فرانسيسكا. ليس لديّ وقت لحل الألغاز».

صعد غضبها فجأة إلى الذروة: «عندما قلت إنني سأتزوجك، لم اكن أدري أنني وافقت على الارتباط ببرنامج عمل وعقد مؤتمر معك مرتين أسبوعياً، أريد الخروج من هذا الاتفاق».

هتف: «ماذا؟».

لو هددت بالوثوب من النافذة لما كان أقل ذهولاً.

وتمنت لو يعترف بشوقه إليها. لكنها قالت: «هذا ليس زواجاً، يا كونراد. هذا عمل في العلاقات الاجتماعية».

ارتجف: «إنه زواج بالنسبة إليّ».

آلمها ذلك حتى تمنت الموت: «آسفة يا كونراد! أنا لست المرأة المناسبة لهذه الوظيفة».

فقال بلهفة: «بل أنت كذلك، أنت على الفطرة، وتصرفاتك ذكية للغاية».

تمنت لو تصرخ. تمنت لو تزحف إلى الزاوية وتموت. إنه يحاول أن يقنعها بالبقاء معه ولكنه حتى الآن لم يقل لها إنه يحبها.

ابتلعت ريقها وتمالكت نفسها، ثم قالت: «آسفة يا كونراد، أنا واثقة من أن لديك أشياء هامة عليك أن تقوم بها. لكنني لست الشخص المناسب لتفعل معه هذه الأشياء. أنا أطلب أن نتوقف الآن».

أخذ فقط يحدّق إليها. وتابعت بهدوء مؤلم: «سأوافقك على كل ما تريد أن تفعل بالنسبة إلى إعلان ذلك. أنت تختار التوقيت. دعني أعلم فقط ما

تقرره.

كان بالغ الشحوب: «ولكن...».

بان الألم في عينيها، لكن ما زال لديها كبرياؤها: «كان يوماً شاقاً، وأنا بحاجة حقاً إلى استحمام وراحة. إذا كنت تسمح...».

فقال: «فرانسيسكا...».

قالت بصوت متهدج: «أنا متعبة يا كونراد».

لأن لديه اجتماعات ومؤتمراً صحفياً عليه أن يرتب أمره، قال بحزم: «سنتحدث عن ذلك غداً».

أومأت وهي متسعة العينين، لم تثق بصوتها كي تقول شيئاً.

وقال بغضب: «أنت أردت المجيء. لا بد أنك كنت تعلمين ما سيكون عليه الأمر هنا».

فهزت رأسها وقد آلمها حلقها: «لا. لكنني أعلم الآن... أريد أن أرحل».

نظر إليها متأملاً بألم، لكنها لم تلن. وأخيراً أذعن قائلاً: «أراك غداً».

وخرج.

* * *

وفي اليوم التالي لم تره.. لكنها رأت كل ما نشر عنها. صورتها وهي تمسك بفوطة تنظيف الأطفال تمسح بها أصابع البنت الصغيرة وقد دارت حول العالم، كما يبدو. وفجأة، إذا بصورها مع كونراد في كل صحيفة رأتها.

هناك شخص ما، وتمنت ألا يكون كونراد قد سرّب صور لهوهما عند الغروب إلى وكالة للصور. (أخيراً وقعا في الغرام) كان هذا هو العنوان الرئيسي في مجلة فرنسية. وضعت المجلة قائمة باسماء السيدات اللاتي عرفهن كونراد قبل وبعد زواجه. وكانت هناك صور لهن.

وكنّ، جميعاً، هادئات رائعات محنكات أنيقات. وطبعاً، كانت هناك سيلفيا، تصلح كملكة وراقصة باليه وهي امرأة. في الواقع، إنه أحبّها على

عكسها هي.

وتقلصت ثقة فرانسيسكا بنفسها إلى حجم رأس دبوس. تمنت لو أنها لم تر قط هذه المقالة. ولكن، هناك شخصاً ما تلطف بإحضار نسخة لها أرسلها إلى غرفتها في منزل الضيافة الرسمي.

خلال أيام لم تره سوى في حفلة عشاء رسمية وكان يبعد عنها بثلاثة مقاعد.

بدأ الإنهاك يبدو على ثوبها الأسود، ولكن ليس بقدر ما هي عليه. وأخيراً، تمنت لو أنها في الوطن.

لكن ذلك كان ميؤوساً منه، العالم كله كان مغرماً بالعشاق، وكان فيليكس وانجيليكا قادمين إلى «ڤيلناغراد» للالتحاق بهما.

امتنعت عن النظر في الصحف، فالصور تجعل كونراد يبدو سعيداً جداً وعاشقاً جداً.

ربما كان عاشقاً في تلك الفترة القصيرة من الزمن، كما أخذت تحدث نفسها، ولكن شؤون البلاد وترشيح فيليكس نفسه للرئاسة، قد ذكّره بالحياة الحقيقية، فتبخر كل شيء.

أرسلت إليه خبراً. هذا ما انتهى إليه الأمر. لم تكن تستطيع، في الواقع، أن تسير في الممر وتقرع بابه، رباه! هي لا تعرف حتى أين هي غرفته. وكان عليها أن ترسل رسالة مع المترجم إلى مديرية التشريفات لكي ترسلها إليه.

كتبت: «لقد فعلت ما جئت لأجله، وأنا بحاجة إلى العودة. لديّ أعمال في لندن، هل يمكنك ترتيب هذا من فضلك؟».

ترددت كثيراً في ما إذا كان عليها أن تكتب (مع حبي). لكنها لم تكن واثقة مما سيفعله بهذه الرسالة، ربما سيعيدها مباشرة إلى احد مساعديه الرسميين ليتصرف بها.

لم تشأ أن ترسل حبها إلى مديرية التشريفات، لم تتوقع أن يأتي كونراد ليراها مرة أخرى، طبعاً لم تتوقع ذلك، فهو مشغول جداً حالياً، ولكنها

كانت تأمل بشكل ما...

ولم يأت، بل اتصل تليفونياً: «مرحباً فرانسيسكا. هنا كونراد».

كانت تسمع الناس يتكلمون حوله، وتليفوناً آخر يرن، ونقراً على آلة كاتبة. وسألها: «ما هذا الكلام عن العودة إلى الوطن؟».

كان واضحاً أنه محاط بالمساعدين، وشعرت بنفسها متطفلة، ووحيدة.

وهكذا قالت بمرح: «آه، أنت تعلم. لقد قمت بما وعدت القيام به. والآن حان الوقت لأن أتحرك، وأرى الأماكن، وأرى الناس».

ساد الصمت، كانت واثقة تقريباً من أن شخصاً ما ألقى عليه سؤالاً فأشار إليهم بالانتظار. وقال وقد بدا الهمود في صوته: «لم تقولي من قبل إنّ وقتك محدود؟».

فانفجرت تقول: «ولم أقل أيضاً إنني قدمت حياتي لمدة غامضة غير محدودة».

قال بحدة: «هل هذا لأجل باري دي لا توش؟».

قالت: «ماذا؟».

ـ لقد حصل على مقابلة مع تلك المجلة الرخيصة، قال إنك تركته لأجلي وإن قلبه تحطم، أنت لا تصدقين ذلك الهراء، أليس كذلك؟

أمسكت فرانسيسكا بذلك وكأنه حبل النجاة فقالت: «ربما غير رأيه».

قال بغضب شديد: «لا يمكن أن تكوني ساذجة إلى هذا الحد».

شعرت بطبعها يثور، فقالت: «لا. لكنني لست عديمة القيمة أيضاً. أريد أن أذهب».

وقبل أن يجيب، خبطت السماعة بعنف. اكسبها هذا كثيراً من الانتباه، إذ حصلت فجأة على كثير من العون من مديرية التشريفات وعدة وزراء طلبوا رؤيتها. حتى إن الملك السابق فيليكس اتصل بها من لندن.

وكانت على وشك أن تصرخ بأنها لا تريد منه أن يهتم بها وكأنها طفلة مدللة.

وأخيراً جاء بنفسه. لم تكد تعرفه في البداية ببذلته الرمادية وربطة عنقه

الرصينة. وفكرت فرانسيسكا ساخرة بأنها ما زالت تغسل ملابسها في الليل، لتستطيع ارتداءها في النهار.

وسألته: «هل خرجت للتسوّق؟».

بدا عليه الارتباك لحظة، كما لاحظت بأسى أنه متعب جداً.

هز كتفيه: «آه، لقد اشتراها لي شخص ما، نعم».

تبدد ارتيابها على الفور: «حسناً، أنت ترهبهم. بينما أنا ما زلت أجاهد بين بنطلون الجينز وثوب أمي الأسود».

بدا عليه فروغ الصبر وقال: «دعيهم اذن يشترون لك ثوباً آخر. وهذا ليس صعباً، هناك متاجر للملابس في «ڤيلناغراد» كما تعلمين».

فقالت: «ألديهم حقاً؟».

وسكتت لحظة ثم عادت تقول: «أنت تعلم يا كونراد أنَّ هذا الهوس الملكي قد تملك عقلك حقاً».

دفع شعره إلى الخلف بضجر: «آسف. كل ما في الأمر أن الملابس هي آخر اهتماماتي حالياً».

شعرت بإغراء في أن تسأله عما هو أكبر اهتماماته، لكنها عادت ففكرت أنه كان قادراً على الإفضاء إليها بذلك في أي وقت من الأيام الستة الأخيرة لو شاء، فهو يعرف مكانها، أكثر مما تعرف هي مكانه. وهكذا قسّت قلبها، وقالت: «آسفة لذلك. وهذا غير مهم على كل حال. أريد أن أعود إلى لندن في أقرب وقت ممكن».

فتردد: «لكنني ظننتك تستمتعين بوقتك».

قالت بحدة وقد ظهر ألمها أخيراً: «هل ظننت أنني سأقع في غرام كل تلك الدعاية الزائفة؟ هل ظننت مرة أن علي أن أصبح أميرة خرافية للصحافة فيبهرني ذلك؟ حسناً، أنا لست كذلك ولن اكون».

ـ أنا لم...

ارتفع صوتها بشبه صراخ: «سأجن إن لم أعد إلى اصدقائي الذين يعلمون حقيقتي».

نظر إليها مصعوقاً، فقالت بلهفة: «هل تفهم؟».

قال: «نعم».

قال ذلك دون أن يفتح أسنانه تقريباً. ولم يكن في صوته أية مشاعر: «كل شيء كان زائفاً وأنت تريدين أن تعودي إلى الحياة الحقيقية. هذا واضح جداً. سأرتب الأمر لك حالاً».

ربما فعل ذلك. لم تعلم. لأن الزائر التالي الذي استقبلته عقب عودتها كان فيليكس الملك السابق وقد جاء من المطار مباشرة مثقلاً بالحقائب ومبتسماً بنفاق.

قال لها وهو يهنئها: «يا طفلتي الحبيبة. يا له من نصر!».

لم تكن مستعدة لتهنئة ملك سابق في الخامسة والسبعين، ملك دمّر حياتها بمكره. فسألته بضجر: «ماذا تريد؟».

ـ سمعت أنك قلقة لأن ليس لديك ملابس ملائمة...

ـ ماذا؟

ـ هذا ما قاله كونراد.

لم تصدق ذلك. ملابسها؟ هل ظن حقاً أنها كانت قلقة بشأن الملابس؟ وفكرت في أنها ستقتله.

ولم يلاحظ الملك السابق ذلك، من الواضح أن انعدام الحساسية هو شيء متوارث. واستمر يقول: «هناك بالتأكيد حفلة راقصة الليلة، ولا بد أنك لم تحضري شيئاً لتلبسيه لهذه المناسبة، وهكذا طلبت المساعدة من أمك فقط. ومن شريكتك المسلية في المكتبة!».

وأشار إلى الحقائب.

حدقت إليه غير مصدقة: «هل طلبت ملابسي؟».

بدا مذهولاً: «ليس أنا بل صديقتك جاز».

ـ كيف تجرؤ...

وسكتت فجأة وكأنها فهمت الآن ما قاله: «أية حفلة؟».

فابتسم مشرق الوجه: «الاحتفال بمنتصف الصيف... هناك دوماً

احتفال كبير في مثل هذا الوقت من السنة. ولكنه سيكون هذه الليلة أكبر. فأنا أقدم حفيدي إلى شعبه».

هزت فرانسيسكا رأسها لكي تفهم، وقالت: «أنت مجنون! نحن في القرن والواحد والعشرين».

ـ أبداً. إن للقصر قاعة رائعة للرقص، وقد سبق أن دعوت الضيوف...

تمتمت: «أراهن على ذلك».

تظاهر بأنه لم يسمع: «كل شيء قد رُتب في آخر لحظة وأحضرت بذلة كونراد الرسمية وأثواباً لك لتختاري من بينها».

ـ لكنني راجعة إلى الوطن.

أمسك فيليكس بيديها، فحاولت أن تخلصهما منه، لكنه كان قد امسك بهما، وبدا جاداً للغاية: «فرانسيسكا، عزيزتي. يجب أن تصغي إلي. عليك أن تكوني هنا، كونراد بحاجة إليك».

فوجئت بذلك وعاد إليها الأمل مرة أخرى وسألته: «أحقاً؟».

ـ طبعاً، إنه لا شيء من دونك.

ارتجفت فجأة: «هل قال ذلك؟».

ـ ليس مضطراً لأن يقول ذلك وكل شخص يعرف هذا.

قالت: «آه!».

وتشبثت بهذه الكلمات. إنه بحاجة إليها، إنه لا شيء من دونها. كل شخص يعرف هذا.

وقال: «أنتِ شيء نافع لا يقدّر بثمن».

حاولت فرانسيسكا ألا تجفل، لكن ابتسامتها أصبحت جافة...

وتابع قائلاً: «أنت ودود للغاية وطبيعية غير متصنعة، وتحبين حبيبي كونراد، صدقيني أنك أحسن سفيرة يمكننا أن نختارها».

تلاشت ابتسامتها فجأة. وعاد هو يقول: «أعترف أنني شككت فيك في البدء ولكن في هذه الرحلة... كنت رائعة إلى حد فاق كل توقعاتنا».

توقعاتنا! توقعاتنا! هل هذا يتضمن توقعات كونراد أيضاً؟

وفجأة، بدأت فرانسيسكا تشعر ببرد شديد، لفّت ذراعيها حولها رغم أن غرف القصر دوماً دافئة في شمس العصر. وقالت بصوت خطر: «آه؟».

لكن الملك السابق فيليكس استمر في حديثه، وعلى كل حال، لم يكن ماهراً في استشعار الخطر. وقال: «لأجلك فقط وافق المسؤول عن المتحف الوطني على الإفراج عن التاج».

شعرت فرانسيسكا بالارتباك. فسألته: «أي تاج؟».

ـ حسناً، ليس تاجي، فذلك يعني خرقاً للدستور، ولكن تاج ولي العهد، وتاج آخر نسائي صغير سيكون لك بالتأكيد.

نظرت إليه خرساء. وشعر بأنه لم يؤدّ دوره كما يجب، فقال بلهجة لوم: «إنه شرف عظيم».

ـ إنه أعظم مما يلزمني. فأنا عائدة إلى الوطن.

انتبه أن هنالك شيء ما، لا يعرف الصفح.

ـ لا يمكنك ذلك.

ـ سترى.

وكان، على كل حال، ديبلوماسياً خبيراً.

ـ وماذا عن كونراد؟

ـ عمل كونراد ممتاز تماماً من دوني.

ـ هذه هي النقطة. لم يصبح عمله ممتازاً حتى حصل عليك.

نظرت إليه بتمرد، ولم تقل شيئاً.

فكر فيليكس في كل تلك المجلات التي كان يقرأها بغبطة في الأيام القليلة الماضية، وقال بإخلاص: «يا عزيزتي. لقد أعدته إلى بلاده».

أشاحت بوجهها: «أنا مسرورة لأجله. وبهذا يمكنني أن أقول إن وظيفتي انتهت».

ـ أبداً فقد جلبت إليه سعادة لم أرها من قبل.

وأدرك فيليكس فجأة أن هذا صحيح. فأفاق من غفلته، وتخلى عن

التكلف في حديثه. وقال: «أنا أعلم أن هذا ليس من شأني، ولكن لا تتركيه الآن. أظنه بحاجة إليك حقاً».

التفتت فرانسيسكا وأخذت تتفحصه وقد ضاقت عيناها. لأول مرة منذ وصوله، توقف عن الابتسام. فقالت ببطء: «أتعني ذلك؟».

ـ لقد عرفته زمناً طويلاً، فلم أره قط يعبث مع فتاة. لا تكلفيني بما يفسد الأمر عليه... أو بالأحرى عليكما أنتما الاثنين.

ترددت، فقال متملقاً: «الليلة فقط ابقي هنا الليلة وتحدثي معه في الصباح».

رآها مترددة. فتملكه اليأس: «ألا تريدين أن تمنحيه فرصة أخرى؟».

لكنها لم تجب، فأذعن وخرج من الغرفة. وعندما انفردت بنفسها، سارت إلى النافذة وأخذت تنظر إلى الحدائق المنظمة. لم يكن القصر كبيراً. ولكن في الحدائق كل ما يتوقعه المرء: «النافورات»، أحواض الزهور بهندستها الجميلة، والطرق الممهدة. لكنها لم تر أياً من ذلك.

أتراها تريد أن تمنح كونراد فرصة أخيرة؟ أتريد ذلك حقاً؟

ومن أعماق ذاكرتها جاءها صوته، وقد أدفأه الضحك والمودة. فيجذبها... يجذبها إلى بحر من المشاعر المتلاطمة، ثم: ما كان لك أن تكوني بهذا الجمال، يا اميرة الخيال.

ارتجفت بالرغم عنها. آه، نعم، إنها تريد أن تمنح كونراد فرصة أخيرة. تريد أن تمنحها لهما، هما الاثنين. لا تريد فقط، بل ترغب وتحتاج إلى ذلك.

وقالت بصوت مرتفع: «إذا كان في ذلك فرصة تريني أنه يحبني، فسأجازف بأي شيء».

***

٩ ـ ورداً... وحباً

وفيما بعد في ذلك المساء، جلست أمام المرآة في غرفتها تنظر بكآبة إلى التاج الماسي الجميل وهو يصر على أن يميل نحو أذنها اليسرى.

وقالت بيأس للمرأة القادمة من وزارة الثقافة المونتاسورية: «لدي شعر غير مناسب، ورأس غير مناسب التكوين، وأتحرك دوماً. لا أدري ما أفعل. آه أنا لا أستطيع لبس هذا الشيء».

قالت المرأة بعطف: «لا يمكن أن تساعدك في ذلك وزارة الثقافة، لأن لا أحد من الأحياء يتذكر كيفية لبسه. ربما يضعون تحته ما يمسك الشعر؟ رشاش للشعر؟ جيلاتين؟».

وأخيراً ثبّتته في مكانه وبقي كذلك، على الأقل ما دامت تسير بخطوات قصيرة جداً وما دامت لا تلتفت بسرعة. وتمنت بحقد، أن يكون كونراد يعاني نفس الانزعاج من تاج ولي العهد.

ولكن عندما تقابلا في الغرفة الصغيرة المبطنة بالمرايا، في انتظار مؤتمرهما الصحافي، لم يكن كونراد يضع على رأسه أي نوع من التيجان، كان شعره أسود لامعاً ومغسولاً حديثاً.

ومن ناحية أخرى، كان يرتدي بنطلونا أبيض وعلى جانبه خط ذهبي. وسترة عسكرية ضيقة باللونين الأخضر والذهبي، ذات حواش وأكتاف ذهبية، وسيف، وملامح جامدة، وفجأة شعرت فرانسيسكا بالفرح.

أشارت إلى سترته الضيقة: «أحببت السترة. لا تخبرني بأنها الوان العلم الوطني».

لم تشرق اسارير كونراد وهو يقول: «إنها بذلة فرسان الجبال».

ربما لا يحبها، فهو قد استغلها ويريد أن يستمر في استغلالها، بكل تأكيد، فهو يراها شيئاً نافعاً وقابلاً للبيع، ومع ذلك ما يزال يبدو رائعاً في بذلته المشابهة لبذلات الموسيقيين.

شعرت بحافز للضحك بصوت مرتفع، لكنها لم تفعل، فما زال لديها ذلك الشعور باحترام الذات، وقالت: «أحمد الله لأن جسمك مناسب لها، لو كان فيليكس في بذلتك هذه لبدا كالمهرج».

لوى كونراد شفتيه: «أتراك تفكرين في كرمز للرجولة؟».

وبدا في صوته الاشمئزاز فقالت مخفية ابتسامة: «نعم».

ألقى عليها فجأة نظرة جانبية ماكرة من تحت أهدابه: «هذا رائع، إنه أحسن شيء سمعته هذا الاسبوع. ابقي على تفكيرك الجيد هذا».

فاختنقت فرانسيسكا.

كان المؤتمر الصحافي محنة حقيقية. كان دفتر الملاحظات ومختصرات عما عليها أن تقوله، أمامها على المنضدة، ولكن إذا هي نظرت إلى أسفل، فسيسقط هذا التاج اللعين فوق عينيها بكل تأكيد، وهكذا ركّزت اهتمامها على جعل أجوبتها قصيرة قدر إمكانها موجهة أي شيء صعب نحو كونراد.

وهكذا سمعته يقول إنه مسرور لإحضاره معونات طبية إلى مونتاسورو ولرؤيته الكثير من مناطق البلاد لم يعرفها من قبل. نعم، فرانسيسكا ستتابع العمل لأجل تمويل مستشفى مونتاسورو. لا، إنه لا ينوي أن يتدخل في سياسة مونتاسورو. نعم، إنه سيتابع العمل خبيراً في الزلازل.

سأله صحافي: «هنا؟».

فأجاب: «ربما. لماذا تظنني مهتماً بالزلازل؟ ذلك لأن مونتاسورو عانت من الكثير منها على مر القرون. ربما هناك عيب في خط الزلازل لا ندري عنه شيئاً بعد».

وجاءه سؤال: «هل سيطالب بالعرش يوماً ما؟».

ـ لا.

وسؤال آخر: «هل سيقبل العرش إذا عرض عليه؟».

فأجاب: «هذا غير محتمل. ولكن سيكون عليّ أن أسأل زوجتي، ليس هذا قراراً يمكن لرجل متزوج أن ينفرد بالجواب عليه».

وتصاعدت أصوات التأييد والتعاطف، ولي العهد كونراد كان يثبت أنه رجل عصري، كما فكرت فرانسيسكا وقد عاد إليها حنقها. لولا خوفها من أن يسقط التاج من مكانه، لأخذت تقذف الأشياء.

تحولت الأسئلة إليها، فأجفلت. وقالت: «اسمعوا. كل صحافي هنا رأى صوري وأنا امسح الشوكولا عن أصابع الطفلة. ولهذا قررتم كلكم أنني ملاك في البيت. أنا هنا لأخبركم أن هذه ليست شخصيتي، فأنا صاحبة مكتبة، ولديّ صديقة ماهرة لديها خطط تتضمن تجنب الأصابع المتسخة. وقد تلقيت منها نصيحة بذلك، وهذا كل شيء».

وانفجر المكان بالضحك. فقالت بجد: «أنا أعني ذلك، لقد استمتعت كثيراً وتعلمت في «مونتاسورو»، لكنني لا أتمتع بالخصال اللازمة لكي اكون أم البلاد. أما اختيار مهنة كونراد فيعود له وحده».

ثم تركا القاعة وسط التصفيق.

وفي الممرّ قال لها: «شكراً لبقائك، فقد كنا فريقاً جيداً متلائماً».

وسكت لحظة ثم عاد يقول: «كالعادة».

بقيت نظراتها إلى الأمام. حسناً، هذا يمنع التاج من السقوط. وهكذا لم تكن تنظر إليه عندما قالت: «أمام الناس فقط».

جمد مكانه: «ماذا؟».

لكنها استمرت في سيرها: «أعني أن عمل الفريق هو فقط للاستهلاك العام، أنت خبير في تحقيق الأهداف، ومزاياي نافعة. لذا أنت تستغلني. أليس كذلك؟».

لحق بها قائلاً بذهول: «لا يمكن أن تعتقدي ذلك».

فقالت: «هل هذا غير صحيح؟ ألست نافعة؟».

قال بفروغ صبر: «بل أنت كذلك، لكنك أكثر من هذا بكثير. عليك

أن تعلمي ذلك».

قالت وهي تقترب من قاعة الرقص: «هذا ما لا أعلمه. وما زلت أريد العودة إلى الوطن حالما تهمد الجلبة».

أوسع كونراد خطواته، ومن خلفهما أخذ مساعدوه يهرولون.

قال: «لكنني أحبك».

استدارت على عقبيها لتواجهه. ومال التاج بشكل خطر، لكنها تجاهلته. وهبّت في وجهه: «أثبت ذلك».

فقال مفكراً: «من الأفضل أن تخلعي هذا».

ثم أزاح التاج عن رأسها، وأرجع بعض الخصلات عن وجهها بأصابعه بحنان.

أدركهما أحد مساعديه، فناوله كونراد التاج دون أن ينظر إلى الرجل أو الماسات: «أعد هذا إلى المتحف من فضلك يا توني، ليس على الآنسة هيلير إلا أن تعطس فيطير التاج ويفقأ عيني شخص ما».

قال توني ضاحكاً: «نعم يا صاحب السمو».

فقال كونراد: «هل نحن إذن جاهزون جميعاً للدخول؟ حتى جدي».

ـ نعم يا صاحب السمو.

وفي الواقع، كان هناك فيليكس، وكان يبدو أهدأ من كونراد، في بذلة سوداء لا يلطف سوادها سوى صفين رائعين من الميداليات.

لكنها لم تهتم بفيليكس، ذلك أن كونراد لم يجب على تحديها. وأخذت تنظر إليه عندما جاء أحد المساعدين يعرض عليه ما يتطلبه منه البروتوكول.

وقالت لكونراد بصوت خافت: «يبدو لي هذا كروضة أطفال. لن أستطيع أبداً أن أفهم طريقة العمل فيها. ما الذي ستفعلونه؟».

قال مفكراً: «لست واثقاً بعد، ولكن أولاً عليّ أن أرافق السيدة زوجة رئيس الوزراء إلى مائدة العشاء وأحاول أن أمنع فيليكس من تقديم نفسه للتتويج».

أجفلت وقد تذكرت ذلك الحديث الذي وصل إلى سمعها منذ اسابيع.

أنا أعرف، أنت لا تحب أن تكون كبش فداء لأحد. ولكن في مطبخ جدته سمعت كونراد يقول لجدته إنه لن يدع فيليكس يرغمه على الزواج بها، وبدت عليه التسلية: «وأنت ابنة أبيك... يمنعك الحقد من أن تصفحي، كما قلت مرة لي».

ولامس خدها بسرعة خاطفة تصورت معها فرانسيسكا أنها تخيّلت ذلك لولا أنها كانت تقفز كجراد العشب كلما لمسها. وقال لها باسماً: «لا تقلقي يا عزيزتي، سأفكر في طريقة تقنعك».

كان العشاء والرقص محنة. وهكذا، عندما أشار فيليكس بأنه مستعد للذهاب كادت تصرخ قنوطاً. فلم يكن يفصلها عن كونراد سوى ثلاثة مقاعد، ومع ذلك كان الوصول إليه كالوصول إلى القمر.

وحالما أصبحوا خارج قاعة الرقص، وضع فيليكس يده على الكم العسكري الأخضر وقال: «تعال معي إلى غرفتي، أريد أن أتحدث إليك».

ألقيا على فرانسيسكا تحية المساء بذهن غائب ثم أسرعا خارجين.

وعادت إلى غرفتها ورفست وسادة الأقدام المطرزة، ثم أخذت تحزم أمتعتها بحركات شرسة حاقدة. ثم أخذت تنظف أسنانها بشكل جعل معجون الأسنان ينتشر على المرآة. ثم قذفت بنفسها إلى السرير وحاولت أن تنام، ولكن عبثاً، فكلما أغمضت عينيها رأت نفسها وهي تقوم بإفناء وتدمير كونراد، ثم.. فجأة انصفق مصراعي النافذة بعنف، هذا كثير.

ونزلت من سريرها ثم سارت نحو النافذة المستطيلة حيث خرجت منها إلى الشرفة.

أمسكت بالمصراعين المفتوحين واعادت إغلاقهما وهي تقول حانقة: «لماذا لا يصنعون أبوابهم متماسكة؟».

فجاءها صوت هازل يقول: «نعم، لماذا؟».

كادت فرانسيسكا تسقط عن الشرفة. وانفتح مصراع الباب على اتساعه في يدها. وأمسكها كونراد بذراعه القوية، وأقفل المصراعين، ثم ابتسم لها.

قالت متلعثمة: «ما... ما الذي تفعله هنا؟».

قال ببرودة: «جاءني إلهام».

ثم حملها. وصرخت بشكل غير رومانتيكي لكنه لم يخل من مشاعر...

ـ أنزلني، فأنا ثقيلة.

وتشبثت به متشنجة. فسألها باهتمام: «ثقيلة بالنسبة لماذا؟».

وجدت نفسها تحمّر حتى منابت شعرها، لكنها أجابت: «بالنسبة للعبث الأحمق».

فضحك: «لا أظن ذلك».

ثم عاد بها إلى غرفتها. وقال مسروراً: «أنت لم تستطيعي النوم كما أرى».

رفعت بصرها إليه. كانت ترتدي قميصاً مقفلاً قديماً. لم تشعر في حياتها قط بانعدام الأناقة والجمال كما تشعر الآن. وقالت بعنف: «إياك أن تجرؤ على الضحك مني».

ـ ومن يضحك؟ وهل أضحك منك إذا قلت أحبك وحبي لك أشبه بغابة مشتعلة...

كان يتأملها وكأن هذه المخلوقة خلقت من أجله فقط. شيء في أعماقها ميّز كل ردة فعل منه، وكل نفس محبوس، وكل آهة.

وشعرت بقلبها يفيض من بين يديها إلى قلبه.

وشعرت فجأة بالحيرة: «هل هذا لأجلي؟».

ضحك وهو يجيب: «ومن غيرك؟».

أزاح شعرها عن وجهها بيد غير ثابتة وهو يتمتم: «حبيبتي. ظننتك لا تريدينني».

تنفست بعمق شاعرة فجأة بالشجاعة: «أنا أريدك، ولكنني أرفض العلاقات العابرة، وأنت تعلم هذا. لا يمكنني أن استسلم لمشاعري ولو أردتُ أنا ذلك».

رفع رأسه وقال برقة: «إذن، أسألك لآخر مرة، هل تتزوجينني؟ زواجاً حقيقياً».

حملقت فيه بمكر: «وهل تعدني بالسعادة؟».

لكن كونراد لم يضحك.

أجاب: «سأجعل حياتك ورداً وحباً إن استطعت».

ـ وكيف؟

أخذ يتأملها. ثم همس الكلمات التي تقال عادة أثناء عقد الزواج: «في الغنى والفقر، في المرض والصحة. هذا هو الزواج الحقيقي».

لم تعد فرانسيسكا تستطيع احتمال ذلك. وراحت تهمس له: «أحبك... أثق بك... أنا ملكك...».

أجابها بحنان: «أحبك بقلبي وروحي وجسدي... لن تندمي أبداً على هذا يا فرانسيسكا، أتعهد لك».

* * *

الخاتمة

تزوجا ثلاث مرات، مرة في احتفال هادىء في كنيسة صغيرة في قرية أمها (كوتسوولد)، وكان أبواها مسرورين طبعاً، لكنهما فقدا اهتمامهما بتنظيم شؤون زواج ابنتهما إلى حد كبير. لأنهما انشغلا كثيرا بالتفاوض بشأن العودة إلى بعضهما البعض.

ومرة أخرى في (قاعة المدينة) في «ڤيلناغراد» وكان فيليكس والملكة السابقة أنجليكا شاهدين. كان لديهما حينذاك شقة في ڤيلناغراد. ولكن أي منهما لم يتخل عن عمله فارتاح السياسيون لمعرفة، أن كونراد، بعكس جده، لا يريد سوى تمديد إقامته في بلاد أجداده.

فقد قال كونراد لهم: «في الأساس، نحن نريد، ككل العرسان، الانفراد، لكننا سنقوم بأي من المناسبات الرسمية التي تريدون».

وأضاف بنظرة ماكرة: «إن زوجتي مخلوقة لتلبس التاج».

ومرة ثالثة، كان الزواج على قرع الأجراس وموسيقى الفرقة النحاسية، حضرها من المصورين أكثر من أي عرس آخر، وذلك في كاتدرائية سان سيمون.

وقالت فرانسيسكا: «اعتدت الآن على الكاميرات».

وكانت وهي تقول ذلك تصعد إلى العربة المكشوفة والمزخرفة بشعارات النبالة. لفّت بيدها تنورة ثوبها الأبيض الساتان تبعدها عن طريقها أثناء صعودها، وقال زوجها وهو يأمر السائق بالسير:

ـ لكنك لم تتعودي على التاج.

لكن فرانسيسكا كانت تنظر إلى الخلف حيث الجمهور المحتشد على درجات الكاتدارئية فقالت: «قف. إن فيليكس يريد شيئاً، فهو يشير إلينا ملوحاً بيده».

نظر كونراد ناحية جده دون اهتمام. وقال: «تجاهليه. إنه يتمرن على الإشارات الملكية، لا تهتمي بأمره فتشجعيه على ذلك».

ضحكت قائلة: «يا للعجوز الماكر!».

قال وهو يضع ذراعه حولها: «حسناً... سيكون مفيداً بالنسبة للسياحة على الأقل، والأفضل لنا أن نشير لبعضنا البعض».

مالت على كتفيه، دافئة حباً وثقة. وإذا بها تشعر بتاج شعرها ينزلق بشكل فاضح.

وهتفت منزعجة: «تباً لذلك. ها إن التاج ينزلق مرة أخرى، آه، حسناً، أظن أن هذا سيعطي الصحف شيئاً تكتب عنه».

وشعرت به يكتم ضحكه وهو يقول ببرودة: «أظن أن بإمكاننا القيام بشيء أفضل».

ومال برأسه ناحيتها، وهمس يقول: «أنت كل شيء كنت أحلم به. لم أكن أعلم أن ذلك سيسعدني إلى هذا الحد».

فتألق وجهها: «هذا أسعد يوم في حياتي».

انخفض جفنا كونراد بنظرة الدعابة الماكرة المألوفة منه تلك، وقال: «حتى الآن... حتى الآن».

***